جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

فنُّ النقائضِ في شعر الهُذَليين
"دراسة تحليلية"

إعداد
د/ هشام علي فتح الله أبوخشبة
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

(العدد السادس والثلاثون)
(الإصدار الأول .. فبراير)
(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م)

علمية- محكمة- ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN ٢٥٣٥-١٧٧X

فنُّ النقائضِ في شعر الهُذَليين – دراسةٌ تحليلية

هشام علي فتح الله أبوخشبة
قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية
البريد الإلكتروني: Hesham.ali@alexu.edu.eg

الملخص:

فنُّ النقائض فنٌّ عربيٌّ قديم، له أصولُه الراسخة، وهو قالبٌ أدبيٌّ قال فيه الشعراء، وقد انتهى به بعضُ الباحثين إلى العصر الأمويّ، ولم يردُّوا أصوله إلى ما قبل ذلك، حتى لقد ذهب الدكتور إحسان النصّ إلى أنّه يوشكُ أن يكون فنًّا أمويًا خالصًا، وأنّه في العصر الجاهلي كان يحمل طابع السذاجة الفنيّة، بينما أكَّدَ الأستاذ أحمد الشايب أنّ النقائض الجاهلية تكاملت عناصرها، وخضعت للتحدِّي الموضوعي والمعنوي والموسيقي، وتمَّت لها قواعدها المعروفة، وخصوصًا عندما كثُرت الأيَّام والحروب، وحَمِيَتْ العصبيات، وتقدَّم الشعر، وظهر الفحول، واستحرى التحدِّي بينهم، وتعاظمت الجاهلية في نفوسهم، لكنَّها – مع ذلك– لم تبلغ من القوة والطول والدقّة والسيرورة والعناية والتأثير ما بلغته أيَّام الأمويين.

وفي هذا السياق تكمن أهمية هذا البحث: "فنُّ النقائضِ في شعر الهذليين – دراسة تحليلية"؛ فهو حَلْقة مهمة في التأريخ لهذا الفن، لاسيما في العصر الجاهلي، وتزداد أهميته كونُه خاصًّا بقبيلة "هذيل"، وهي قبيلة مشهودٌ لها بالفصاحة والنبوغ في الشعر، وأيضًا فديوانها هو الديوان الوحيد الذي وصل إلينا من دواوين القبائل.

وقد عرّف البحث بالنقيضة، وتحدّث حديثًا مقتضبًا عن أهمية شعر الهذليين، ثم تكلّم على طبعات ديوان الهذليين، والطبعة التي اعتمدها، ولماذا؟ وانقسم البحث بعد ذلك إلى قسمين كبيرين: قسمٍ تناول البنية المعنوية للنقائض الهذلية، وشقَّق فيها الكلام. وقسمٍ تناول بنيتها الفنيّة؛ فتحدَّث عن التصوير الفنّي، وتناول مسألة

الكمّ، وتعرَّض لظاهرة الغرابة، وتحدَّث في أوزان النقائض. ثمَّ جاءت خاتمة البحث، وفيها أهمُّ النتائج التي انتهت إليها الدراسة، ثمَّ ثَبَتٌ بالمصادر والمراجع.

وقد اعتمد البحث المنهج الوصفيّ، الذي يَرْصُدُ الظواهر ويصفها، ويحاول أن يفسِّرها من خلال إجراءاته، التي من أهمّها إجراءُ التحليل، متحرِّرًا من إسار الفروض المسبقة والأهواء العالقة، معتمدًا على النصوص في استجلاء الأمور والحقائق.

الكلمات المفتاحية: النقائض؛ شعر؛ هذيل؛ البنية المعنوية؛ البنية الفنية.

The Art of Contrasts in the Poetry of Al-Hudhalin - An Analytical Study

Hisham Ali Fathallah Abu Khashaba
Department of Arabic Language and Literature - Faculty of Arts - Alexandria University
Email: Hesham.ali@alexu.edu.eg

Abstract:

The art of contrasts is an ancient Arab art, with its solid origins, and it is a literary template that the poets said about, and some researchers have concluded that it dates back to the Umayyad era, and they did not trace its origins back to before that, until Dr. In the pre-Islamic era, it bore the stamp of artistic naivety, while Professor Ahmed Al-Shayeb asserted that the pre-Islamic contradictions integrated their elements, and were subject to the objective, moral and musical challenge, and their well-known rules were fulfilled, especially when the days and wars abounded, and the fanatics were protected, and the poetry progressed, and the stallions appeared, and the challenge among them was engulfed. Jahiliyyah grew stronger in their hearts, but it did not, however, reach the strength, length, accuracy, process, care, and influence that it reached during the Umayyad era.

In this context, the importance of this research lies: "The Art of Contrasts in Al-Hudhaylene's Poetry - An Analytical Study"; It is an important link in the history of this art, especially in the pre-Islamic era, and its importance increases because it is specific to the "Hudhail" tribe, which is a tribe known for its eloquence and genius in poetry, and also its collection is the only collection that has come down to us from the collections of tribes.

The research was defined by the antithesis, and it spoke briefly about the importance of the poetry of the Huthalis, then it spoke about the editions of the Diwan of the Huthalis, and the edition it adopted, and why? After that, the research

was divided into two large parts: a section dealing with the moral structure of hilarious contradictions, and discourse in it. and a section dealing with its technical structure; He talked about artistic photography, dealt with the issue of quantity, and was exposed to the phenomenon of strangeness, and he talked about the weights of opposites. Then came the conclusion of the research, and it contains the most important results that the study concluded, and then it was proven by sources and references.

The research adopted the descriptive approach, which monitors and describes phenomena, and tries to explain them through its procedures, the most important of which is the analysis, free from the bondage of presuppositions and unresolved whims, relying on texts to clarify matters and facts.

key words: Antitheses; Poetry; Moral Structure Technical Structure.

المقدِّمــة

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلام على رسول الله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه ومَنْ والاه، أما بعد،

فإنَّ فنَّ النقائض فنٌّ عربيٌّ قديم، له أصولُه الراسخة، وهو قالبٌ أدبيٌّ قال فيه الشعراء، وقد انتهى به بعضُ الباحثين إلى العصر الأمويّ، ولم يردُّوا أصوله إلى ما قبل ذلك، حتى لقد ذهب الدكتور إحسان النصّ إلى أنّه يوشكُ أن يكون فنًّا أمويًا خالصًا، وأنّه في العصر الجاهلي كان يحمل طابع السذاجة الفنيّة(١)، بينما أكَّدَ الأستاذ أحمد الشايب أنّ النقائض الجاهلية تكاملت عناصرها، وخضعت للتحدِّي الموضوعي والمعنوي والموسيقي، وتمَّت لها قواعدها المعروفة، وخصوصًا عندما كثُرت الأيَّام والحروب، وحَمِيَتْ العصبيات، وتقدَّم الشعر، وظهر الفحول، واستحرى التحدِّي بينهم، وتعاظمت الجاهلية في نفوسهم، لكنَّها – مع ذلك– لم تبلغ من القوة والطول والدقّة والسيرورة والعناية والتأثير ما بلغته أيَّام الأمويين(٢).

وفي هذا السياق تكمن أهمية هذا البحث: "فنُّ النقائضِ في شعر الهذليين – دراسة تحليلية"؛ فهو حَلْقة مهمة في التأريخ لهذا الفن، لاسيما في العصر

---

(١) انظر: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٧٣م، ص٤٢١.

(٢) انظر: تاريخ النقائض في الشعر العربي، دار النهضة المصرية، ط٢، ١٩٥٤م، ص ١٢٣.

وانظر أيضًا: النقائض الجاهلية (النماذج الأقدم)، للدكتورة فاطمة حسن عبد الفتاح، حوليات آداب عين شمس، المجلد (٤٤). وقد تناولت نقائض الفند الزماني، وهو أحد أقدم الشعراء الجاهليين، ونقائضه كانت ردًّا على المهلهل والأفوه الأودي، وقد قيلت في أقدم الصراعات القبلية، والشعراء الثلاثة كانوا من الفرسان، وتحكي هذه النقائض فنًّا مكتملَ الأساليب والمعاني.

الجاهلي، وتزداد أهميته كونُه خاصًّا بقبيلة "هذيل"، وهي قبيلة مشهودٌ لها بالفصاحة والنبوغ في الشعر، وأيضًا فديوانها هو الديوان الوحيد الذي وصل إلينا من دواوين القبائل. ويسعى هذا البحث للإجابة عن الأسئلة الآتية:

١- هل كان فنُّ النقائض عند الهذليين، وبخاصَّة في الجاهلية، مكتملَ الأركان؟

٢- إلى أيِّ مدًى عكست هذه النقائض طبيعة الحياة الهذلية من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية؟

٣- كيف كانت البنية الفنيّة لهذه النقائض؟

الدراسات السابقة:

لم نجد دراسة وافيةً مستقلة للنقائض الهذلية، وإنما هي إشارات مبثوثة في بعض الكتب عن بعض هذه النقائض، أو دراسات عن نقيضة واحدة منها، وفيما يأتي تفصيل لهذا:

١- تاريخ النقائض في الشعر العربي، للأستاذ أحمد الشايب: لم يتعرَّض لنقائض الهذليين إلا في إشارة عابرة لنقيضة أبي ذؤيب الهذلي وخالد بن زهير.

٢- هُذَيل في جاهليتها وإسلامها، للدكتور عبد الجوّاد الطيّب: لم يذكر شيئًا من شعر النقائض إلا عند حديثه عن الفاحشة وانتشارها عند الهذليين، فتعرَّض لذكر شيء من نقيضة خالد بن زهير مع أبي ذؤيب، وشيء من نقيضة خالد بن زهير ومعقل بن خويلد.

٣- نقائض صخر الغيّ وأبي المُثَلَّم (دراسة تحليلية)، للدكتورة ليلى بنت محمد بن عبد الرحمن الدخيل: والدراسة -كما ترى- لنقيضة واحدة من النقائض الهذلية، أمَّا سائر النقائض فلم تتعرَّض لها.

٤- شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، للدكتور أحمد كمال زكي: لم يتحدَّث عن النقائض، وإنما تحدَّث عن الهجاء الذي في المناقضة؛ فقد ذكر أنَّ الهجاء نوعان: نوعٌ عن جانب واحد، ونوعٌ في معرض المناقضة، ولمَّا ذكر الهجاء الذي في معرض المناقضة تعرَّض لبعض الهجاء في ستّ

نقائض فقط، وكان الحديث مقتضبًا جدًّا لم يتجاوز بضع صفحات. إذن فالحديث عن النقائض الهذلية في هذه الدراسة..

- لم يكن حديثًا خاصًّا بها، وإنما كان في سياق الحديث عن الهجاء.
- ثُمَّ إنه لم يستوفِ كُلَّ معانيها، وإنما ذكر الهجاء فقط.
- ولم يتعرَّض للنواحي الفنية.
- وأيضًا فإنَّ الإشارة كانت إلى ستّ نقائض فقط.
- كما أنَّ الحديث كان مقتضبًا جدًّا لم يتجاوز بضع صفحات.

خُطَّةُ البحث ومنهجه:

اقتضت خُطَّةُ البحثِ أن يبدأ بمدخلٍ، فيه تعريفٌ بالنقيضة في اللغة والاصطلاح، وحديثٌ مقتضبٌ عن أهمية شعر الهذليين، ثم كلامٌ على طبعات ديوان الهذليين، والطبعة التي اعتمدناها في بحثنا، ولماذا؟

وانقسم البحث بعد ذلك إلى قسمين كبيرين: قسمٍ تناول البنية المعنوية للنقائض الهذلية، وشقَّق فيها الكلام. وقسمٍ تناول بنيتها الفنيّة؛ فتحدَّث عن التصوير الفنّي، وتناول مسألة الكمّ، وتعرَّض لظاهرة الغرابة، وتحدَّث في أوزان النقائض. ثمَّ جاءت خاتمة البحث، وفيها أهمُّ النتائج التي انتهت إليها الدراسة، ثمَّ ثَبَتٌ بالمصادر والمراجع.

وقد اعتمد البحث المنهج الوصفيّ، الذي يَرْصُدُ الظواهر ويصفها، ويحاول أن يفسِّرها من خلال إجراءاته، التي من أهمّها إجراءُ التحليل، متحرِّرًا من إسار الفروض المسبقة والأهواء العالقة، معتمدًا على النصوص في استجلاء الأمور والحقائق.

هذا، وقد بذلتُ وحاولت، ومن الله أرجو الإثابة، وإليه المرجع والإنابة، وصلَّى الله على النبيّ الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

مدخـل

تعريف النقيضة:

جاء في لسان العرب: «النقض: إفسادُ ما أَبْرَمْتَ من عَقْدٍ أو بناء. وفي الصحاح: النقضُ نقضُ البناء والحَبْلِ والعَهْد ... والنقيضة في الشِّعر: ما يُنْقَضُ به... وكذلك المناقضة في الشعر ينقض الشاعرُ الآخرُ ما قاله الأوّل، والنقيضة الاسم يُجْمع على نقائض»(١).

فمادة (نقض) تدور في اللغة على الهَدْم وإفساد ما أُبْرِم، سواء أكان هدمًا حسّيًّا، كهدم البناء ونقض الغَزْل، أم هَدْمًا معنويًا كإفساد العهود والعقود. أمَّا الصورة الاصطلاحية التي انتهت إليها النقيضة منذ الجاهلية فالأصلُ فيها «أنْ يتجه شاعرٌ إلى آخر بقصيدة هاجيًا أو مفتخرًا، فيعمد الآخر إلى الردِّ عليه هاجيًا أو مفتخرًا ملتزمًا البحر والقافية والرويّ الذي اختاره الأوّل»(٢).

ومن هذا التعريف يمكننا أن نقف على أركان النقيضة، وهي: وحدة الموضوع، ووحدة البحر، ووحدة القافية والرويّ. وأهم جانب من هذه الجوانب هو جانب المعنى؛ إذ من أجله كانت النقيضة.

والنقائض بهذا تدخل في التناص؛ فهي تفاعل قويٌّ بين نصّين، بل يمكن أن نقول: إنَّ إسهام الشاعر الأوّل في قصيدة الشاعر الثاني أكبر من إسهام الشاعر الثاني نفسه أو يقاربه، صحيحٌ أنَّ الشاعر الثاني فَتَق المعاني وفرَّعها وجاء بصُوَرٍ جديدة، لكنه دائمًا ينظر إلى معاني الشاعر الأوّل(٣).

---

(١) لسان العرب، لابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، مادة (نقض).

(٢) تاريخ النقائض في الشعر العربي، لأحمد الشايب، ص٣.

(٣) النّص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي)، للدكتور محمّد عَزَّام، منشورات اتحاد كُتَّاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م، ص ٨٩.

وتنصبُّ عناية الشاعر الثاني على إفساد ما يقرّره الأوّل من معانٍ، ويسلك لأجل ذلك طرقًا متعدِّدة[١]، منها:

١- القلب، وهو أن يقول الأوّل هاجيًا فيرد عليه الثاني قالبًا عليه معانيه ذاتها، مُدَّعيًا أنها من صفات الأوّل أو رهطه.

٢- المقابلة أو الموازاة، وهي أن يضع الثاني من المفاخر أو المثالب ضروبًا تقابل ما وضع الأول، وتكون مناظرة لها.

٣- التوجيه، ومعناه أن تحدث الحادثة، ويتناولها الشاعران، وكلٌّ يفسِّرها تفسيرًا يؤيّد موقفه في الفخر أو الهجاء.

٤- التكذيب، وذلك بأن يكذّب الثاني الأوَّلَ فيما يدّعيه أو يقوله.

وقد نشأ هذا الفنّ في الشعر الجاهلي طفلًا يحبو، وسرعان ما استقامت قدماه حتى رأيناه شابًّا قويًّا، ولاسيما في ظلال السيوف وبين الأيّام[٢]، فلما جاء الإسلام ظفر به فَنًّا مُوَطَّأ الأكناف فاستعمله في سبيل دعوته، وطفق شعراء المسلمين يردُّون على هجاء شعراء المشركين، وقد كان يهجو رسولَ اللهَ صلى الله عليه وسلم- ثلاثةُ رَهْطٍ من قريش: عبد الله بن الزِّبَعْرَي، وأبو سفيان بن الحارث، وعمرو بن العاص، وكان يهجوهم ثلاثةٌ من الأنصار: حسَّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، فكان حسّان وكَعْبٌ يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيّام والمآثر ويعيِّرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يُعَيّرهم بالكفر[٣].

---

(١) انظر: تاريخ النقائض، ص ٢٧، وفنّ الخطابة، للدكتور أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، ط٢، ١٩٩٨م، ص ١٣٢.

(٢) انظر: تاريخ النقائض، ص ٤٠٥.

(٣) انظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، دار الكتب المصرية، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م، ٤/ ١٣٨.

ولمّا جاء الأمويون أشعلوا فنّ النقائض نارًا مُوْقَدة، كانت في نزعتها رجعةً جاهليةً عاصفةً في ظلِّ الدولة الإسلامية؛ فرأينا «حُرماتٍ تُنتهك، وأعراضًا تُمَزَّق، وصورًا شنيعة تنتشر، وتُهَمًا تُكال جزافًا، وأحقادًا تُنْبَش، وعصبيات تحيا وتثور، ومعارك تقوم، والدولة ترى ذلك وكأنها راضيةٌ عنه مطمئنة إليه، حتى عادت النقائض في بعض نصوصها نَوْعًا من الأدب القبيح الذي ينافي الذوق والخُلُق والدين، ومن عجبٍ أن يكون ذلك في ظلِّ الإسلام، وأن يبلغ من ذلك ما لم يدُر بخَلَد الجاهليين»[١].

والنقائض غالبًا ما تكون بين متعاصرين، كما هي الحال في نقائض جرير والأخطل والفرزدق، على أنه وُجِدَتْ نقائض مع تباعد عصري الشاعرين، كما في نقائض تميم بن المُعِزّ وابن المعتز، ووُجد هذا أيضًا في الشعر الأندلسي بعد خفوت أصوات النقائض في المشرق بعد عصرها الذهبي في عهد بني أمية[٢].

قيمةُ شِعْرِ الهُذَليين:

شغلت هذيل ببطونها العديدة رقعةً واسعة من إقليم الحجاز في مناطق متعدِّدة حول مكّة، وفي أطرافها الجنوبية والشرقية، وفي عرفة وما يتصل بها، وفي أماكن كثيرة بين مكّة والمدينة، وربَّما كان أغلبها أقرب إلى مكة[٣]. وقد منحها هذا الموقع الجغرافي المتميّز أهمية كبيرة؛ فهي من البوادي القريبة من مكّة؛ مهبطِ الوحي ومكانِ الرسالة، وقد كان أهل مكة يُرسلون أولادهم إلى هذه

(١) تاريخ النقائض، ص ٢٧١، ٤١١.

(٢) انظر: التيار المشرقي في الأدب الأندلسي، للدكتور حسن عبَّاس، مطبعة الشاعر، طنطا، ص ٨٣. وهناك مجموعةُ قصائد لشعراء الأندلس ينقضون فيها قصائد لشعراء المشرق، مع تباعد العصور.

(٣) انظر: هُذَيل في جاهليتها وإسلامها، للدكتور عبد الجوَّاد الطيّب، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٢م، ص ٥١.

البوادي ليشتدَّ عودُهم، ويتقوَّم لسانهم؛ ولذا ففَهْمُ لسانِهم مما يُعين كثيرًا على فَهْمِ الوحيين؛ القرآن والسُّنَّة.

وكانت هُذَيل على درجة عالية من الفصاحة، بل جاء عن بعض الشعراء والنقّاد أنهم أفصح الناس؛ فقد سُئِل حسَّان بن ثابت: «مَن أشعر الناس؟ قال: أشعرهم رجلًا أم قبيلة؟ قيل: بل قبيلة؟ قال: هُذَيل. قال الأصمعي: فيهم أربعون شاعرًا مُفْلِقًا»(١).

وقال أبو عمرو بن العلاء: أفصحُ الشعراء لسانًا وأعذبهم أهل السَّرَوَات، وهي ثلاث، وهي الجبال المطلّة على تِهامة ممّا يلي اليمن؛ فأولها هُذَيل، وهي تلي السَّهْل من تِهامة، ثم بُجيلة في السَّراة الوسطى، وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها، ثم سراة الأزد أزد شَنَوءة(٢).

ولم تخلُ كتب اللغة؛ نحوها وصَرْفها وغريبها، ولا كُتُب الأدب، ولا كتب التفسير، من شِعْرٍ لهذيل؛ فمنذ دُوِّنَتْ اللغة كان هذا الشعر حقيبةَ نصوصها، وجَعْبَة شواهدها، وملتقى حُفَّاظها، وإليه مرجعُ علمائها في الاستشهاد على صحة المفردات، وعليه يعتمدُ الأئمة في تفسير ما التبس من مُحْكَم الآيات(٣).

لقد كانوا يعتقدون أنَّ امتلاك ناصية اللغة والتمكّن فيها، ومن ثَمَّ التمكّن في علوم الشريعة، لا يتمُّ من دون تعلّمِ شعرِ هذيل وكلامها، وليس بعجيبٍ إذن

(١) فحولة الشعراء، للأصمعي (ت ٢١٦هـ)، تحقيق المستشرق: ش تورّي، قدَّم لها: الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط٢، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م، ص ١٩.

(٢) العمدة في محاسن الشعر ونقده، لابن رشيق (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م، ١/ ٨٨، ٨٩. وانظر في الحديث عن السَّرَوات: معجم ما استعجم للبكري (ط. عالم الكتب)، مواطن متفرقة، ومعجم البُلْدان للحَمَوي (ط دار صادر)، ٣/ ٢٠٥.

(٣) انظر: مقدِّمة الجزء الثالث من ديوان الهذليين، طبعة دار الكتب المصرية.

أن نرى اهتمامَ الشافعيِّ الكبيرَ بتعلّم لغة هُذيل، قال: «لزمتُ هُذَيلًا بالبادية أتعلَّم كلامها، وآخذ اللغة، وكانت أفصحَ العرب»[١].

ها هو الشافعيُّ أيضًا يشهد لهذه القبيلة بأنها أفصح العرب، ويُكِبُّ على تَعلّم كلامها، وحفظ شعرها، وجاء عن مصعب الزبيري: قرأ الشافعيُّ أشعار "هُذَيل" حفظًا، ثُمَّ قال لي: لا تخبر بهذا أحدًا[٢].

ولعلَّ هذا كان من أسباب قُوَّة الشافعي وقدرته على انتزاع المعاني والأحكام من نصوص الوحيين والاستشهاد عليها من اللغة، ولعلَّ هذا أيضًا هو ما أورثه فصاحةً وبيانًا عاليين أثنى عليهما كثيرٌ من الناس، حتى قال ثَعْلب (ت ٢٩١هـ)، وهو من أئمة اللغة الكبار: «يأخذون على الشافعيّ وهو من بيت اللغة؛ يجب أن يُؤْخَذَ عنه»[٣]. وقال الجاحظ: نظرتُ في كلام هؤلاء النابغة فلم أَرَ أَحْسَنَ تأليفًا من المُطَّلبي، كان فوه ينظم دُرًّا إلى دُرٍّ[٤].

ديوانُ الهُذَليين:

اهتمَّ الرواةُ قديمًا بجمع شعر القبائل[٥]؛ كانوا يجوسون خلال ديارهم، يسمعون أخبارهم، ويروون أشعارهم، ومن أشهر هؤلاء الرواة: الأصمعي، وأبو سعيد السكّري، وأبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى، وخالد بن كُلثوم الكلبي، ومحمّد بن

(١) توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس، لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، ص ٥٥.

(٢) نفسه، ص ٥٤.

(٣) نفسه، ص ١٠٣.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م، ١/ ٢٦٠.

(٥) انظر: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، للدكتور ناصر الدين الأسد، دار الجيل، ط٧، ١٩٨٨م، طبعة مصوّرة عن طبعة دار المعارف، ص ٥٤٤.

حبيب، وأبو عمرو الشيباني. وقيل: إنَّ أبا عمرو هذا جمع وَحْدَه شعرَ نيّفٍ وثمانين قبيلة[١]. وذكر الآمدي (ت ٣٧٠هـ) في المؤتلِف والمُخْتلِف ستين ديوانًا من دواوين القبائل، كما ذكر النديم في الفهرست ثمانية وعشرين ديوانًا من دواوين القبائل[٢].

وعلى الرغم من هذه الوفرة العددية لدواوين القبائل التي حفظت لنا المصادرُ العربية أسماءَها وأعدادَها فإنّه لم يصل إلينا منها إلا ديوان الهذليين. وقد طُبع هذا الديوان عدَّة مرات، وفي أماكن مختلفة، وقد طبعته دار الكتب المصرية في ثلاثة أجزاء، وهي طبعة جيدة، وأجودُ منها، بل أجود طبعة على الإطلاق هي طبعة دار العروبة، بتحقيق عبد الستار فرَّاج ومراجعة محمود محمد شاكر، في ثلاثة أجزاء مع شرح السُّكَّري، بعنوان: "كتاب شرح أشعار الهُذَليين"؛ ولذا اعتمدناها في بحثنا هذا؛ فهي أحسنها وأوفاها، وأَغْنَتْ عنها جميعًا[٣].

(١) الفهرست، للنديم (ت ٣٨٥هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص ١٠١.

(٢) انظر: مصادر الشعر الجاهلي، ص ٥٤٤، ٥٤٥.

(٣) انظر: مُقَدِّمة التحقيق لهذه الطبعة.

البنية المعنوية لنقائض الهُذليين

اعتمدنا في عرضنا للبنية المعنوية للنقيضة في شعر الهذليين التقسيمَ الموضوعي؛ أي قَسَّمنا النقائض حسب مضامينها أو موضوعاتها، وإنْ اختلفت العصور، والذي دعانا إلى هذا التقسيم أنَّ اثنتين وعشرين نقيضة من أربع وعشرين نقيضة، هي مجموع النقائض في شعر الهُذَليين، ينتمين للعصر الجاهلي، والاثنتان الباقيتان إسلاميتان. والجدول المُلْحَق في آخر البحث يُوَضّح هذا؛ ففيه حَصْرٌ لهذه النقائض، وشعرائها، وأسبابها، وأزمانها، وأماكنها في الديوان، وأعداد أبياتها، وأوزانها، ورويّها. وعلى هذا فمعيار اختلاف العصور لن ينفعنا كثيرًا.

وكثيرٌ من هذه النقائض لا تحوي معنى واحدًا، وإنما معانيَ كثيرة، ففيها –مثلًا– ذكرٌ للحرب والنساء والعتاب والهجاء والفخر وغير ذلك، ونحن نُقَسِّمها حسب المعنى الأظهر، أو المحور الذي قامت عليه أو من أجله النقيضة، وليس معنى هذا أننا نُغْفِل المعاني الأخرى، بل نعرض لها ونشير إليها، لكن في سياق عَرْض المعنى الأظهر أو المحور.

أولًا– نقائض محورُها المرأة:

المرأة جزءٌ أصيل من نسيج المجتمع الهُذَلي؛ ولذا كانت محور العديد من نقائض الهذليين، وسنرى فيما يأتي كيف عرضت النقائض لنظرة المجتمع لها، وأثرها في المجتمع، وشيء من سلوكها وطبائعها وصفاتها.

والبداية من أبي ذؤيب الهُذَلي[(١)]، الذي كان يَبعث ابنَ عمٍّ له يقال له: خالد بن زهير إلى امرأة يُقال لها: أمّ عمرو، فأرادت الغلام عن نفسه، فأبى ذلك

(١) أبو ذؤيب أشعر الهذليين وهو شاعر مخضرم. وانظر في ترجمته: الشعر والشعراء، ط. دار المعارف، ص ٦٥٣.

حينًا، ثم طاوعها، فعرف أبو ذؤيب الخبر. وكان أبو ذؤيب قد أخذها قبل ذلك من عمرو بن مالك الذي كان يُرْسل إليها أبا ذؤيب، فلمَّا كَبِر أخذها أبو ذؤيب.

لمَّا عرف أبو ذييب الخبر هجا خالدَ بن زهير واتهمه بالخيانة، بعد أنْ ذكَّره بالأمانة وحفظها، قال[١]:

رَعَى خالدٌ سرّي ليالِيَ نَفْسُه ... تولَّى على قَصْدِ السبيل أمورُها
فلمَّا تراماه الشبابُ وغيُّه ... وفي النفس منه فتنةٌ وفجورُها
لَوَى رَأْسَه عنِّي ومالَ بوُدِّهِ ... أغانيجُ خَوْدٍ كان فينا يزورُها
تَعَلَّقه منها دلالٌ ومُقْلَةٌ ... تَظَلُّ لأصحاب الشقاء تُديرها
فإنَّ حرامًا أنْ أخونَ أمانةً ... وآمَنَ نَفْسًا ليس عندي ضميرُها

فأجابه خالد بن زهير بأبيات تساوي أبياته في العدد، وقَلَبَ عليه معناه، وذكّره بأنَّه هو مَنْ سَنَّ هذه السُّنَّة؛ فقد خان ابن عُوَيمر وأخذها منه، ثم أخذ يهدِّده، ويحذره من عداوته، قال[٢]:

فإنَّ التي فينا زَعَمْتَ ومثلَها ... لفيكَ ولكنِّي أراك تجورُها
أَلَمْ تَتَنَقَّذْها من ابن عُوَيمرٍ ... وأنتَ صَفِيُّ نَفْسِهِ وسجيرُها
فلا تَجْزَعَنْ من سُنَّةٍ أنت سِرْتَها ... فأوَّلُ راضٍ سُنَّةٍ من يسيرُها
فإنْ كُنْتَ تَشكو من خليلٍ مخانةً ... فتلكَ الجوازي عَقْبُها ونُصُوْرُها

ونبقى مع خالد بن زهير، الذي رُوي أنَّه خالَّ امرأةً وابنتها في الجاهلية، فبلغ ذلك مَعْقلَ بن خويلد[٣]، وهو سيِّد قومه فقال[٤]:

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبد الستَّار فرَّاج، ص ٢١٠.

(٢) نفسه، ص ٢١٢. سجيرها: صفيُّها.

(٣) شاعر مخضرم. انظر: معجم تراجم الشعراء، للدكتور يحيى مراد، ص ٦٨٤.

(٤) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٣٩٧. الحارك: أعلى الكاهل، والطِّلْب: الطالب، والبسط: الناقة التي معها ولدها، تُخَلَّى وولدها لا تُعْطف على غيره، والخليّة: التي تعطف على وَلَدِ غيرها، وبهاء: حسنة، والثفنات: المبارك، وهي أربع، والخامسة (الكِرْكِرَة)، فإذا أراد أن يحلبُها فحَّجت فخذيها للحلب.

أتـاني ولـم أشْـعُرْ بـه أنَّ خالـدًا يُعَطِّــفُ أبكــارًا علــى أمّهاتهــا
يُعَطِّـفُ طُولاهــا ســنامًا وحاركًــا ومثْلُـكِ أَغْنَـتْ طِلْبَهـا عـن بناتهـا
فلــم تَــرَ بِسْــطًا مِثْلَهــا وخليَّــةً بهــاءً إذا دَفَّعْــتَ فــي ثفناتهــا

المرأة لا تُعطف على ولدها، وإنما تُعطف على ولد غيرها، وإنما كان اتهمه بأنه صادق امرأة وابنتها. فأجابه خالد بن زهير، وقلب عليه المعنى كما فَعَل مع أبي ذؤيب، واتهمه في نسائه، وهدَّده وحذَّره من هجائه، قال[١]:

إذا مـا رأيـت نسـوةً عـن سـوءةٍ فــإنَّ نســاءَ مَعْقــلٍ أخواتُهــا
فكُنْ معقلًا فـي قومك ابـنَ خُوَيلِدٍ ومَسِّــكْ بأســبابٍ أضــاع رعاتُهــا

ألقى خالدٌ التهمة في وجه مَعْقل، وذكّره بخيانة نسائه؛ وقد زعم الرواة أنه كان لمعقلٍ –وهو من السادات– امرأتان أطبقتا على حبِّ رجلٍ جميلٍ من أشجع، يُقَال له: عُشّ بن جابر، وكانت تؤمّانه بين الحين والآخر، ولمّا عَلِم معقل قَتَل إحداهما، وقطع يد الأخرى بالسيف، وقال في ذلك أبياتًا، منها[٢]:

أَلَــمْ تَخْشَــيْ خليلَــكِ أو تُجِلّــي أبـاكِ هُضَـيْبَ عـن بعـض الخطـابِ
أقَــرَّ العَــيْنَ أنْ حُزِمَــتْ يــداها ومــا إنْ تُحزمــان علــى خضــابِ
ومقعهــــدُنَّ أنديــــةً إليهــــا مُنَكِّســــةً تُخطِّــطُ فــــي التــــرابِ

وتحكي هذه النقيضة والتي قبلها ما وصل إليه المجتمع الهُذَلي في الجاهلية من شيوعٍ للفاحشة ومجاهرةٍ بها، فالرجل يخالل المرأة وابنتها، والمرأة تتخذ رسولَ عاشقها بدلًا منه، ثمَّ لمَّا كَبِرَتْ سنُّ العاشق الجديد استبدلته أيضًا برسوله الشابّ، وليس هذا فحسب بل رأينا المرأة تعمل قوَّادة، فممّا يُروى أنَّ عامر بن العجلان كان صديقًا لجارة أبي المُثَلَّم، وكان إذا أراد صديقته عمدت

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٣٩٨. أضاع رعاتها: ذهب أصحابها.
(٢) نفسه، ص ٣٨٧. كان اسمها "هُضَيبة"، وأراد بالأب الزوج.

امرأة أبي المُثَلَّم إلى جارتها فجمعت بينه وبينها ثُمَّ انصرفت عنهما، وذات يوم جمعت بينهما، ثم نهشت عامر بن العجلان حيَّة، فعمدت المرأتان فجعلتا له من الشجر خيمة، وجعلتا تأتيانه بطعام وشراب، حتى استفاق ثم قال أبياتًا يهجو فيها أبا المُثَلَّم، وكان ساءه أن ينجو ورمَاه بالخسَّة والضعف، فقال(١):

أسَّــر أبــاكم بــأنَّ الســليمَ ... إذا عُـضَّ فـي الفـرش لـم يَـرْمَضِ
تَــرَمَّضَ مــن حــرِّ نفَّاحــةٍ ... كمــا سُــطِحَ الجَمْــرُ بــالمِرْكضِ
متــى مــا أَشَــأْ غيــر ذي عِلَّــةٍ ... أَهِضْــكَ وزاحَ أَسَــى الهُــيَّضِ

فردَّ عليه أبو المُثلَّم(٢)، وتفاخر عليه، وذكر أنه لا يَعْبَأ به؛ لأنَّ حاجاته لا تنقضي، وهمَّتَه لا يكفيها الزمان، وأنه لو شاء أن يجعله إزارًا على امرأة حائض لفعل، قال(٣):

أعــامِ بــن عجــلانَ مقصــورةً ... بغيــريَ مــن شِــبَعٍ عــرِّضِ
فــإنَّ الــذي يُتَّقَــى شــرُّهُ ... كمــا تُتَّقــى النــارُ بــالمِرْكضِ
متــى مــا أَشَــأْ غيــر زَهْــوِ الرّجــا ... لِ أَجْعَلْــك رَهْطًــا علــى حُــيَّضِ
وأَكْحُلْــكَ بالصــابِ أو بــالجَلَا ... ففقِّــحْ لكُحْلِــكَ أو غَمِّــضِ
وأَسْـعُطْكَ فـي الأنـفِ مـاءَ الأَبَـا ... ءِ ممَّــا يُثَمَّــلُ بــالمِخْوَضِ

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٣٠٣. السليم: اللديغ، ويرمض: يحرّق بالرمضاء، والفرش: الأرض الواسعة، والمِرْكض: مِسْعَر النار، والهيض: الكسر بعد الجَبْر، وزاح: ذهب، وأسى: حُزْن.

(٢) شاعر جاهلي. انظر في ترجمته: معجم تراجم الشعراء، للدكتور يحيى مراد، ص ٣٣.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٣٠٦. مقصورة: خاصة لك، والرهط: جلودٌ تُقَدُّ سيورًا ويترك أعلاه، تأتزر به النساء والصبيان، والصاب: شجر إذا أصاب العين حلبها، والجلا: ضَرْبٌ من الكحل، وفقِّحْ: افتحْ عينك أو غمِّضها، والأباء: الأجمة، وهو ماء رديء مكروه، ويُثَمَّل: يُخَثَّر، والمخوض: الذي يُخاض به.

وفي سياق الحديث عن النساء الهذليات وحالهنَّ في الجاهلية نَرَى أمَّ عمرو امرأة خِذام الخُزَاعي، وقد أُسِرَتْ عُرْيانة في نساء من قومها، يوم غزاهم معقل بن خويلد، فضجَّت وغَضِبت، وهجت هذيلًا بقولها[١]:

أساءَت هُذَيْلٌ في السياقِ وأفحشتْ وأفرط في السَّوْقِ القبيح إسارُها
لعلَّ فتاةً منهمُ أن يسوقها فوارس منَّا وهي بادٍ شَوَارُها
فإنْ سَبَقَتْ عُلْيَا هُذَيلٍ بذَحْلها خزاعةَ أو فاتت فكيف اعتذارُها

عيَّرته بذهاب المروءة، والإفحاش في الأسر، وحذّرته عاقبة الليالي، وأنَّ الدائرة تدور، وتوعّدته برجال قومها، فردَّ عليها مَعْقِل بأنه لا يَخْجَلُ من هذا، بل يفخرُ به، فهو من وجهة نظرها عارٌ، أمَّا من وجهة نظره فهو فخرٌ، وفَعَله مرَّات عديدة، إنه يُوَجِّه كلامها وجهةً أخرى، ثم إنه لا يخشى فوارسهم، وإنما هو في انتظارهم بفتيان قومه الأشدَّاء مساعير الحرب، يقول[٢]:

أرى أمَّ عمرو في السِّياق تَغَضَّبَتْ وهان علينا رَغْمُها وصغارُها
وكم مِنْ فتاةٍ قبلها سُقْتُ عَنْوَةً مُنَعَّمةٍ والزُّرْقُ بادٍ حِرَارُها
فإن يأتنا يا أمَّ عمرو خيولُكُمْ تلاقِ لنا حربًا شديدًا سُعارُها
وفتيانَ صِدْقٍ من هُذَيْلٍ أعزَّةً مساعير حَرْبٍ ليس يُخْشَى فرارُها

وتعكس هذه الأبيات الحالة الأخلاقية المزرية التي وصل إليها المجتمع الجاهلي آنذاك؛ إنه لا يَرَى مشكلة أبدًا في أسر النساء بهذه الصورة التي يأنفها كلُّ ذي مروءة، بل يفخر بها، ويتكرارها، إنه انحطاطٌ ليس وراءه مزيد، وتدنٍّ وصل إلى غايته.

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٣٩٦.
(٢) نفسه، ص ٣٩٦. عَنْوَة: قَسْرًا، والزُّرْق: جبال، وحرار: جمع حرَّة.

وبقي لنا في النقائض التي محورها المرأة نقيضة واحدة، لكنها إسلامية، وخالية تمامًا من هذه المشاهد الجاهلية المشينة، وتبدأ هذه النقيضة عند أسامة بن الحارث[١]، الذي شبَّب بامرأةٍ من قومه تُدْعَى ليلى بنت الحارث الزُّلَفية، وبدأ قصيدته بمقدِّمة غزلية، فذكر طيف أمِّ نَوْفَل وطيف أُمَيَّة، وكيف أرَّقاه في ليله الطويل، ثم دخل إلى ذكر ليلى، وهيامه بها، وخوفه من أن تصير حاله في هواها كحال المُنَخَّل الشاعر، ثم شرع يذكر محاسنها؛ جميلَ حديثها الذي لو سمعه سهيل بن عمرو، وهو الرجل الفصيح، لاستقلَّ كلامه، وعِفَّتها، وطيبَ ريحها وقت السَّحَر، قال[٢]:

وقد خِفْتُ أنْ ألقى بليلى من الهَوَى ... زمانَـةَ وَجْـدٍ مِثْـلِ وَجْـدِ المُنَخَّـلِ
كريمـةُ موضـوعِ الحـديث ضـنينةٌ ... بأسـرارها إنْ تَنْـتَحِ البُخْـلَ تُجْمِـلِ
من البيضِ إنْ يَسْمَعْ سُـهَيْلٌ كلامَها ... يَـدَعْ قَصْـدَ مجـراه سُـهَيْلٌ وينـزلِ
مـن الشُّـمِّ العـرانين لـم تكـن ... تمـالَى لغَوْغَـا الزَّوْمَـرِ المُتَعَلِّـلِ
تضـوَّع ريَّاهـا إذا مـا تناكحـتْ ... مـن الليـل أحـلامُ الكَهَـامِ المُثَقَّـلِ
فزالـت بليلـى مـا حييـتُ قصـيدةٌ ... تُرَشَّـحُ لَـم تُؤْشَـبْ ولـم تُتَنَحَّـلِ

فردَّ عليه أمية بن أبي عائذ[٣]، وهو ابن أخت سهم، وكان ساعتها غضبان على ليلى، مع أنه كان يمدحها قبل ذلك، قال[٤]:

---

(١) أسامة بن الحارث، أبو سهم الهذلي، شاعر مخضرم. انظر في ترجمته: الشعر والشعراء، ص٦٦٦.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٥٥٢، ٥٥٣. زمانة: شدَّة مثل الزمانة، وإن تنتح البخل: تقصده، وتمالَى: تَهُمُّ به، والزَّوْمر: اللاعب، وتناكحت: اختلفت أحلام هذا الثقيل.

(٣) أمية بن أبي عائذ شاعر مخضرم، انظر ترجمته في: الشعر والشعراء، ص ٦٦٧.

(٤) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٥٢٤. الحبير: ثياب الحِبَر، أي: فامتدحها بمثل وَشْي الحِبَر، والمسلسل: وَشْي مثل السلاسل، ولم تُغَيَّل: لم يُضَعَّفْ رأيُك.

تمـدَّحْتَ ليلـى فامتـدِحْ أمَّ نـافعِ بقافِيـةٍ مِثْـلِ الحبيـرِ المُسَلْسَـلِ
فلو غيرها من وُلْدِ كَعْبِ بن كاهلٍ مَـدَحْتَ بقـولٍ صـادقٍ لـم تُفَيَّـلِ

لا يريدُ أُمَيَّةُ سَهْمًا أن يمتدح ليلى؛ وذلك لغضبه عليها، وإنما يريده أن يمتدح أمَّ نافع. ثمّ شرع أمية يعقد المقارنات بينهما؛ فلو مَشَتْ ليلى إلى جوار أمّ نافع في واد فسيح ومحفلٍ من الناس لافتضحت ليلى لجمال أمّ نافع، ثم إنَّ أمَّ نافع لا تركب الحمير، وإنما تركب فحلًا كريمًا، كما أنها لا تشرب الحامض من اللبن، ولا تأكل أليات الضأن، وإنما تشرب الصافي من لبن الخلايا، وتأكل السَّنَام المشرَّح، قال أُمَيَّة[1]:

ألا لَيْـتَ ليلـى ســايَرَتْ أمَّ نــافعٍ بـوادٍ تَهَـامٍ يَـوْمَ صَـيْفٍ ومَحْفَـلِ
وكلتاهمـا ممَّـا غـدا قَبْـلُ أهلُهـا علـى خيـر مـا ساقوا وردُّوا لِمَزْحَـلِ
فـذلك يـومٌ لـن تَـرَى أمَّ نـافعٍ علـى مُثْفِرٍ مِـنْ وُلْـدِ صَـعْدَةَ قَنْـدَلِ
ولكـن علـى قَـرْمٍ هِجـانٍ مُوَكَّـلٍ بلُؤْمَتِـهِ أو ذاتِ نِيْـرَين عَيْطَـلِ
وهل أَلياتُ الضأن في طعمِ حازرٍ كمَحْـضِ الخلايـا والسَّـنَامِ المُرَعْبَـلِ
ومـا ريـح شـتٍّ بـالبلادِ وعَرْعَـرٍ كـريحِ الخُزَامـى أو جنـاةِ القَرَنْفُـلِ

فأجابه إياس بن سَهْم بن أسامة، وكذَّبَه فيما ادعاه على ابنة عمّه ليلى[2]:

لَهجْـتَ بقـولٍ واسـتَعَرْتَ سـفاهَةً وقـد كُنْـتَ عـن ذاك المقـالِ بمعـزِلِ
كمـا قُلْـتَ قـولًا غيـرُهُ الحـقُّ جـائرًا لبنـتِ مُعَـمٍّ فـي ذُرَى المَجْـدِ مُخْـوَلِ
فإنَّـك قـد أخطـأتَ حـين ذكرتهـا وإنَّـك لـم تَصْـدُقْ عليهـا فَبَـذِّلِ

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٥٢٥، ٥٢٦. ردُّوا لمَزْحَل: ردُّوا من الكلأ ليركبوا، وعلى مُثْفِر: لا تراها على حمار تركبه، ويقال للحُمُر: بناتُ صَعْدَة، وقرم: فحل، وهجان: أبيض قد قارف الكرم، وبلؤمته: بجهازه، وعيطل: طويلة العُنُق، وحزر اللبن: حمض، والمحض: اللبن الصافي الخالص، وخُزَامى: زهرٌ متعدِّد الألوان طيّب الرائحة.

(٢) نفسه، ص ٥٢٧.

وإنَّــك لــم تتــرك صــديقًا مســالمًا وإنَّــك لــم تحتــلْ لتُحْمَــدَ فاحْتَــلِ
فـإنَّ الـذي أَسْـدَيْتَ قد عـاد مَغْرمًـا عليــك ولــم يُغْنِمْــكَ حبَّــةَ خــردلِ

ثُمَّ تَوَعَّده، وهدَّده، وبَيَّن عوار رأيه حين أعطى مَدْحَه وعزَّه لغير مواليه، وأعمله أنَّ المرأتين سواء في الحسب والنسب والخِصال، قال(١):

مَتَـى مـا يَضَـعْكَ الليـثُ تحت لَبَانِـهِ تَكُـنْ ثَعْلَبًـا أو يَنْـبُ عنـك فَتـدْحَلِ
فـإنَّ التــي أَفْلَجْــتَ كابنــةِ عمِّهــا فتــاةً فغَيْــرَ الحارثيــةِ فاخْسِــلِ
وكلتاهمــا تبنــي لبيــتٍ دعائمًــا كــرائمَ مــن عاديَّــةٍ لــم تَبَــدَّلِ
تميميّتــان المَجْــدُ فــي مَنْصِــبَيْهما كَسَـيْفَي عزيـزٍ بُـرِّزا عنـد صَـيْقَلِ

وأخذ يذكر صفات حُسْنٍ لليلى مقابل التي ذكرها أُمَيَّة لأمِّ نافع، فذكر من طيب ريحها ونعومة جسدها وبياضه ما لا مزيد عليه، قال(٢):

وإنْ تَــكُ هــذِي طيّبًــا نَفْــحُ ريحهــا فــإنَّ لــدَى ليلــى جنــاةَ القَرَنْفُــلِ
ومِسْــكًا وكــافورًا إذا هَبَّــت الصَّــبَا تَعُــلُّ بــه أبــدانَ جَيْــداءَ مُغْــزِلِ
إذا مــا مَشَــتْ يومًــا بــوادٍ تنسَّــمَتْ مجالسُـــها بالمَنْـــدَلِيّ المُكَلَّـــلِ
تغصُّ الحُجُولُ المُصْمَتَاتُ إذا مَشَتْ بفاعمــةٍ للحِجْــلِ رَيَّــا المُخَلْخَــلِ
بَليجــةُ أســرارِ الجبــينِ كأنَّمــا تَجَلَّى الدُّجَى عن جابةِ القَرْنِ مُطْفِلِ

فأجابه أُميَّة وقلب عليه معناه حين هدَّده ووبَّخه، وذكَّره بأنه ابن أختهم، وأنَّ عِرْضَه عِرْضُهم، ومَجْدَه مَجْدُهم، فإن كانوا أسودًا فهو محسوب عليهم، وإنْ كانوا ثعالب فهو منهم، ثم جعل يستعطفه ويسترضيه، ويحذِّره من وشاية الواشين، ويخبره أنَّ ولاءه لهم، وأنهم متى دَعَوه أجابهم، قال(٣):

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٥٢٩. تَدْحَل: تَدْهَشُ. والدَّحْل: خَرْقٌ في بيوت الأعراب، يُجْعل لتدخله المرأة إذا دَخَلَ عليهم داخل.
(٢) نفسه، ص ٥٢٩، ٥٣٠. المَنْدَل: العود الطيب الرائحة.
(٣) نفسه، ص ٥٣٠.

أَبْلِغ إياسًا أنَّ عِرْضَ ابن أختكم ... رداؤك فاصْطَنْ حُسْنَه أو تَبَدَّلِ
فإنْ تَكُ ذا طَوْلٍ فإنِّي ابن أختكم ... وكلُّ ابن أختٍ مِنْ مَدَى الخالِ مُغْتَلِي
فكن أسدًا أو ثعلبًا أو شبيههُ ... فمهما تَكُنْ أُنْسَبْ إليكَ وأُشْكَلِ
وما ثعلبٌ إلا ابن أخت ثعالبٍ ... وإنَّ ابن أختِ الليثِ رِئْبَالُ أَشْبُلِ
ولن تَجِدَ الآساد أخوالَ ثعلبٍ ... إذا كانت الهيجا يلوذُ بمَدْخلِ

ثانيًا– نقائض الحَرب:

أكثر نقائض الهذليين، بل أكثر شعرها، قيل في ظلِّ الأيَّام والحروب، وتحت ألويتها، ويمكننا أن نقول ونحن مطمئنون: إنَّ هذيلًا لم تكن تميلُ إلى شيء كما كانت تميل إلى الحرب، وكانت هذه الحروب لأسباب ثلاثة[١]؛ الأوّل: رغبتها في النَّهْب والسَّلْب، فقد كانت حياة الهذليين شاقة، وكان لابد لهم من أن يجدوا مصدرًا يعيشون منه، والثاني: الثأر والانتقام ممَّن أغار عليهم ونهبهم وقتل رجالهم وسَبَى نساءهم، والثالث: تعرّضهم لطمع جيرانهم، فكان لابد لهم من أن يردعوا عدوّهم ويحموا حقيقتهم وبيضتهم.. وهذا أوان الشروع في ذكر بعض النقائض التي تمخَّضت عنها هذه الأيام، نتلمَّس فيها طبيعة هذه الحروب وطبيعة أهلها، وأسبابها، وما تكشَّفت عنه.

أغارت بنو لِحْيان على خزاعة وبني بَكْرٍ فأدركوا ثأرهم، وقتلوا فيهم قتلى، فقال عمرو بن هُمَيل اللحياني يذكر ما فعلوا، وكيف سِيْقَ الأسرى في ذِلَّة وهوانٍ[٢]:

(١) انظر: شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، للدكتور أحمد كمال زكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م، ص ٣٣.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٨١٥، ٨١٦. أبأنا: كافأنا، أخذنا البَوَاء، وهو القود، وغزال: ثنيّة عُسْفَان، والمُزيَّل: المفرَّق، والخِلْم: الصديق، وعوان: أسرى، والرسيف: مشى المُقَيَّد، والهجان من الإبل: البيض الكرام.

أَبَأَنْـا بيـومِ العَـرْجِ يَوْمًـا بمثلِـهِ غــداةَ غــزالٍ بــالخليطِ المُزَيَّــلِ
فقــتلًا بقتلانَــا وسُــقْنَا بســبينا نســاء وجئنــا بالهجــانِ المُرَعَّــلِ
فأصــبحن أَخْــلام العبــاد عوانيــا يُرَسِّفْنَ شَتَّى فـي الحديد المُتَسلْسَلِ
ألـم يعلـم التَـيْسُ الخُزَاعـي أنَّنـا ثأرنــا أبــا عمــروٍ وأصــحابَ جَنْــدَلِ
قتلنــا بقتلانــا خُزَاعَــة كُلَّهــا وبَكْــرًا ففــي كــلا الفــريقين نَعْتَلــي

فأجابه سُوَيد بن عامر الخزاعي، وذكّره بما فعلوه بهم قبل ذلك، ذكّره بمشهد سَوْق الأشراف مقيّدين في السلاسل، وذكّره بما صار إليه حال نسائهم بعد النعيم والرَّغد، لقد صِرْن في ذِلّة ومهانة؛ ذلّةِ الأسر ومهانةِ الخدمة، قال(١):

ألا أبلغــا أفنــاءَ لحيــانَ آيــةً وكُنْتَ مَتَى تُجْهِلْ خصيمَكَ يَجْهَلِ
عَجِبْـتُم لشـأن الحَـرَبْ أن أَعْقَبَـتْكُمُ وأيَّــةُ أُنْثَــى حامــلٍ لــم تحــوَّلِ
وتنْسـى الأُلَـى جئنـا بهـم فتـركتهم لـدَى خَلَفٍ يَسْعَوْن فـي كُلِّ مِرْمَلِ
وكُــنَّ يُــرَاكِلْنَ المــروطَ نواعمًــا يُمَشِّين وَسْطَ الدار فـي كُلِّ مُنْعَلِ

أُسِرَ قَيْس بن العيزارة عند فَهْم(٢)، وأخذ سلاحَه ثابتُ بن جابر، وهو تأبَّط شرًّا، لكنَّ قيسًا خادَعَهم، وأفلت منهم، وحكى في قصيدةٍ له قصَّة الأسر، وكيف أفلت، ومنها(٣):

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٨١٧. امرأة مُحَوِّل: إذا وَلَدتْ مَرَّةً ذكرًا ومَرَّة أنثى، والألَى: الأشراف، المِرْمَل: القيد الصغير، والمِرْط: ثوبٌ تلبسه المرأة قد لُبِس قبل ذلك، ومُنْعَلٌ: مِرْطٌ طويل تطؤه المرأة فيصير لها نَعْلًا.

(٢) فَهم من بطون قيس، كانت تجاور هذيلًا، ولها معها وقائع مشهورة، ومن رجالاتها تأبّط شرًّا. (انظر: المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي، ١/ ٤٠٣). وقيس بن العيزارة شاعر جاهلي. انظر في ترجمته: معجم تراجم الشعراء الكبير، للدكتور يحيى مراد، ص ٥٩٤. وانظر في ترجمة تأبَّط شرًّا: الشعر والشعراء، ص ٣١٢.

(٣) كتاب: شرح أشعار الهذليين، ص ٥٨٩. أقتد: مكن، وسلْكى: على استقامة، وفيه إشارة إلى المثل المعروف: الأمر سُلْكى وليس بمخلوجة (مجمع الأمثال، ط الآداب، ص ٢٤٠)، وبواقر: جمع باقر، وجامل: جمع جمال، والبلهاء: ناقته، وأعراسها: أولادها.

لعمرك أَنْسَى روعتي يوم أَقْتُدٍ ... وهل تترُكَنْ نَفْسَ الأسير الروائعُ؟
غداة تنادَوْا ثم قاموا وأجمعوا ... بقتلي سُلْكى ليس فيها تنازعُ
وقالوا عدوٌّ مسرفٌ في دمائكم ... وهاجٍ لأعراضِ العشيرة قاطعُ
فسكَّنْتُهم بالقول حتى كأنَّهم ... بواقرُ جُلْحٌ أسكنتها المراتعُ
فقلتُ لهم شاءٌ رغيبٌ وجاملٌ ... فَكُلُّكُمُ من ذلك المال شابعُ
وقالوا لنا البلهاءُ أَوَّلَ سُؤلةٍ ... وأعراسها والله عنِّي يدافعُ

لا ينسى قيسٌ روعته وخوفه في هذا اليوم، وقد أطبق القوم على قتله؛ لأسباب ظاهرة واضحة؛ فهو عدوٌّ مسرفٌ في العداوة، وهاجٍ لأعراضهم، لكنه خاتلهم وخادعهم بالقول، ورغبَّهم في المال الكثير فسكنوا، وأخذوا منه أول ما أخذوا ناقتهُ البلهاء وأولادها. ثم حكى قيس رأي زوج تأبَّطَ شرًّا عندما أشارت عليهم بقتله والتمثيل به خُفية، وقد همَّ تأبَّطَ شرًّا بتنفيذ مشورتها، لكنَّ قيسًا خدعه أيضًا.

وقد أجابه تأبَّط شرًّا، وذكر كيف كان قيس يتذلَّل إليهم ليتركوه مقابل المال، إنه لم يخدعهم كما زعم، وإنما تركوه بإرادتهم، وأخذوا ما يريدون، وأيضًا كانوا في شُغل بجبهة قتالٍ مشتعلة، فلا يريدون فتح جبهة أخرى مع قوم قيس بن العيزارة، ثم إنَّ تأبَّط شرًّا مهتمٌّ بما قاله قيس عن سلاحه، فقلب عليه معناه، واتهمه بالجبن والخور، قال(١):

إنَّك لا بزَّأً مَنَعْتَ ولا يدًا ... وإنَّ السيوفَ بِالأكفِّ شوارعُ
غداة تقول قد ملكت فأسجحوا ... وإنِّي لما أسلكتموني لتابعُ
فوالله لولا ابنا كلابٍ وعامرٌ ... بَعَوا أمر غيَّاتٍ هُمُ والأقارعُ

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٥٩٥. البزُّ: السلاح، ويدًا: أسرت، وأسجحوا: هوِّنوا وسَهِّلوا، وبَعَوا: جَنَوا، وغيّات: من الغيّ، هوادة: سكون، وعُضَّة: منقصة واستحياء.

لجامعتُ أمـرًا لـيس فيـه هـوادةٌ ولا غُضَّـــةٌ ولـــيس فيـــه تنـــازعُ

ويُعَيِّرُ الأَبَحُّ بن مُرَّة أخو أبي خراش ساريَة بن زُنَيم بفرارة من قومه معاوية بن صخر، وأنه لم يستطع مجابهتهم، فتركهم مسرعًا فَرَقًا منهم؛ إذ لا تكفي قوته لحَطْمهم ولا لكسرهم؛ وذلك لشدَّتهم وبأسهم وبسالتهم، قال(١):

لعَمْـرُكَ ساريَ بـن أبـي زُنَـيمٍ لأنـت بَعْرَعَـرَ الثـأرُ المُنِـيْمُ
عليك بنـي معاويـةَ بـن صَـخْرٍ فأنـت بعَرْعـرٍ وهُـمُ بضـيمِ
نسـاقيهم علـى رُصُـفٍ وظـرٍّ كدابغـةٍ وقـد حَلِـمَ الأديـمُ
فلـم تتـركهُمُ قِصَـدًا ولكـن فَرِقْـتَ مـن المغـاور كـالنجومِ
رأيـتهم فـوارسَ غيـر مِيـلٍ إذا شَـرِقَ المقابَـلُ بـالكُلُومِ

فأجابهُ سارية، وذكر مثالب في مقابل المثالب التي ذكرها الأبحّ؛ فعيّرهم بأنهم لمّا قُتِل أخوهم الأسود بن مُرَّة أخذوا الفدية من رئاب بن ناضرة، ولم يأخذوا بثأره، قال سارية(٢):

لعلَّـك يـا أبَـحُّ حَسِـبْتَ أنِّـي قَتَلْـتُ الأسـودَ الحسـن الكريمـا
أخـذتم عَقْلَـه وتركتمـوهُ يسـوق الظُّمْـيَ وسـط بنـي تمـيمِ

وكانت بنو ظفر من بني سُلَيمٍ وبنو خُنَاعة حَرْبًا، فدلَّ رجلٌ من بني خُنَاعة بني ظَفَر على بني واثلةِ بن مِطْحَلٍ، وهم بالقَدُوم من نَعْمَان، فبيَّتوهم،

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٦٦٧. عرعر وضيم: موضعان، ورُصُف وظرّ: ماءان، وحَلِمَ الأديم: كثر عليه الدود فثقبه وأفسده، وقِصَدًا: مُكَسَّرين قطعًا قطعًا. وسارية بن زنيم شاعر مخضرم، وانظر في ترجمته: أُسْد الغابة (ط دار الكتب العلمية)، ٢/ ٣٨٠، والإصابة (ط مركز هجر)، ٢/ ١٧٣.

(٢) نفسه، ص ٦٦٨. الظُّمْي: السود من الإبل.

وقتلوا ابنَي واثلة: خَالدًا ومَخْلَدًا، وصِبيةً ثلاثةً من بني حُرَاق، فقال المعترض بن حَبْوَاء الظَّفَرِيّ(١):

قَتَلْنَا مَخْلَدًا وابْنَي حُرَاقٍ ... وآخر جَحْوَشًا فَوْقَ الفطيمِ
وخالدًا الذي تَأْوِي إليه ... أرامِلُ لا يَؤُبْنَ إلى حميمِ
فإمَّا تقتلوا نفرًا فإنَّا ... فجعناكم بأصحاب القَدُومِ
تركنا الضُّبْعَ سارية إليهم ... تنوبُ اللَّحْمَ في سَرَبِ المَخيمِ
لهامِهِمِ بمدفارٍ صياحٌ ... يُدَعِّي بالشراب بني تميمِ

فأجابه عبد مناف بن رَبْعٍ بأنَّ فِتنَ الدَّهر وابتلاءاته تَحدث كُلَّ حين، وقَتْلُ هؤلاء النفر من قومه من رَيْب الدهر وشدائده، وقد اعتادوا عليها، ثم إنَّهم بقتلهم هؤلاء النَّدامى له لم يهجوه؛ فقد قتلوا منهم قبل ذلك أبا عمرو، وأغرقوا غلامًا في دمائه، ولم يُغْنِ عنه صياحُه، ولا ولولةُ النساء عليه ولا رنينهنّ، وأيضًا إنَّ بقيّتهم ليست في منعة من سيوفهم، ولا في حصنٍ حصين من رماحهم، قال عبد مناف(٢):

ألا أَبْلِغْ بني ظفرٍ رسولًا ... ورَيْبُ الدَّهْر يَحْدُثُ كُلَّ حِيْنِ
أحقًّا أنَّكم لما قتلتم ... نداماىَ الكرام هجوتموني
فإنَّ لَدَى التناضُبِ من عُوَيرٍ ... أبا عمرو يخرُّ على الجبينِ
وإنَّ بعُقْدةِ الأنصاب منكم ... غلامًا خرَّ في عَلَقٍ شنينِ

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٦٧٨، ٦٧٩. الجَحْوش: الصبي الصغير ابن ثلاث أو أربع سنين، وتنوبه: تأتيه، والسَّرَب: الطُرُق، والمخيم: وادٍ، وهام: طائر يخرج من هامة القتيل، يقول: اسقوني حتى يُقتل قاتلُه، وهو كَذِبٌ. ومدفار: بلد لبني عامر.

(٢) نفسه، ص ٦٨٠، ٦٨١. التناضب: شجر، وعُوَير: مكان، وعقدة الأنصاب: موضع، والشنين: الذي يتشنَّنُ، أي يتصبَّب، والوتين: عِرْقٌ في القلب مُعَلَّق في الجوف، والقُفّ: المكان الغليظ، والقفاف يُمْتنع فيها لغلظتها.

وإنَّـــا قـــد قَتَلْنَـــا مَـــنْ علمـــتم ولســـتُمْ بَعْـــدُ فـــي قُـــفٍّ حصـــينِ

وتصف لنا هذه النقائض بشاعة هذه الحروب وقسوتها، على الرغم من أنها لم تكن –في معظمها– حروبًا طويلة، ولا بأعداد كبيرة، وإنما كانت غارات خاطفة من دون سابقِ إنذارٍ أو تنبيه، عدوانًا على الغير أو دفاعًا عن النفس، لكنْ كانت تحفُّها البشاعة والوحشية، وتُغَلِّفها القسوة، وتغيب عنها المروءة والنَّخْوة؛ إنها لا ترحم الطفل ولا ترقُّ له، بل تُباهي بقتله، وتحكي تفاصيل ذلكم القتل في تبجُّح عجيب؛ تذكر عويله وصراخ النساء وعويلهنّ عليه، وكلُّ ذلك لم يشفع له، ولم يُخَلِّصْه. كما أنَّ هذه الحرب تسوق الشيوخ الكبار يرسفون في قيودهم في ذِلّة وهوان، وتأسِرُ النساء عرايا، لا تَرْحَمُ ضعفهنَّ ولا عجزهنَّ.

نعود إلى الغارات مرَّة أخرى، والدائرة هذه المرَّة كانت على المُغِير؛ فقد أرادت الجَدَرة، وهم جِعْثِمَةٌ، حيٌّ من الأزدِ أزدِ شنوءة، وهم حلفاءُ في بني عَدِيّ بن الدِّيْل بن بكر، أرادوا الإغارة على بَني قُرَيم بن صاهلة، وهم ستُّون رجلًا، فطرَّقت عليهم بنو قُرَيم، ولم يَنْجُ منهم إلا رجلٌ واحد، فقال أبو بُثَيْنة القُرَمي الصاهلي، يذكر كيف جدعوا أنوفهم، وتركوهم وقد اصفَّرت جلودُهم غير مأسوفٍ عليهم(١):

ألا أَبْلِـــغْ يمانِينَـــا بأنَّـــا جَـــدَعْنَا آنُـــفَ الجَـــدَراتِ أمـــسِ
عَـــدَوْنَا عَـــدْوَةً شَـــقَّتْ علـــيهم بِمَعْـــدًى يحطـــمُ السُّـــهْليَّ شَـــكْسِ
تركنـــاهم ولا نرثـــي علـــيهم كـــأنَّ جُلُـــودهم طُلِيَـــتْ بـــورسِ

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٧٢٥. يمانينا: مَنْ في شِقِّ اليمن من قومنا، والسُّهْلِيّ: منسوب إلى السَّهْل، ودُهْرِيّ: منسوب إلى الدَّهْر، ومَعْدًى: من العدو، أي بعَدْو، وشكْس: خشن، ووَرْس: مُصْفَرَّة، ويَصْفَرُّ جِلْدُ المَيِّت إذا كان قتيلًا.

فأجابه أُهْبان بن لُعْط الدِّيْلي، ووضع مثالب تعادلُ المثالب التي ذُكِرت، ذكَّره بما فعلوه فيهم، وكيف أهلكوهم، وأباروهم، وساقوهم في ذِلَّة ومهانة يُضْربون، كما تُسَاق الإبلُ المجلوبة يضربها الأجيرُ في مآخيرها، قال(١):

وقُلْتُ أبا بُثَيْنَةَ غَيْرَ فَخْرٍ شَهِدْتَ بني عُتَيْبَةَ إذ أُبيروا
غداةَ جنيدبٍ يحدو رعيلًا كما أَنْحَى على الجَلَبِ الأجيرُ

فأعاده أبو بُثَيْنَة القُرَمي مَرَّة أخرى إلى ما لاقوه من ذُلٍّ ساعة أرادوا أن يُغيروا عليهم؛ إنهم قُتِلوا وغُبنوا، واحترقوا بسعير نبال ابن رَوْح؛ بل سَلَحُوا من شدَّة خوفهم وفزعهم، قال(٢):

ألا لَيْتَ أُهْبانَ بن لُعْطٍ تلَفَّتَ نحوهم حين استثيروا
فيُقْتَل أو يَرَى غَبْنًا مُبِينًا وذلك لو دَرَيْتَ به نصورُ
كأنَّ القوم من نَبْلِ ابن رَوْحٍ لَدَى القَمْراء تَلْفَحُهم سعيرُ
جلبناهم على الوترين شدًّا على أستاهم وَشَلٌ غزيرُ

وأغار عمرو بن جابر بن سفيان أخو تأبَّطَ شَرًّا على بني عُتَير من هُذَيْل، ومعه رجلان، فرماه رَجُلٌ من بني عُتَيرٍ بسَهْمٍ فقتله، فقال تأبَّطَ شرًّا لما بلغه قَتْلُ أخيه(٣):

وحَرَّمْتُ النساءَ وإنْ أُحِلَّتْ بشَوْرٍ أو بمزجٍ أو لصابِ
حياتي أو أزور بني عُتَيْرٍ وكاهلها بجمعٍ ذي ضبابِ
إذا وَقَعَتْ لكَعْبٍ أَو خُثَيْمٍ وسيَّارٍ يسوغُ لها شرابي

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٧٢٧. الرعيل: قطعة خيل قدر عشرين أو خمسة وعشرين، وأنحى: أَكَبَّ، ويحدو: يسوق، والجَلَب: إبلٌ جُلِبَتْ.

(٢) نفسه، ص ٧٢٨، ٧٢٩. ابن روح: رجل، والقمراء: ليلة مقمرة، واللَّفْح من الحرّ والنَّفْح من البَرْد، والوتران: بلد، والوشل: الماء الغزير، والمراد به هنا السَّلْح.

(٣) انظر: الأغاني، ٢١/ ١٥٧. وكتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٨٤٧.

أظُنِّـــي ميّتًـــا كَمَـــدًا ولَمَّـــا أطـــالِعْ طلعـــةً أهـــل الكِـــرَابِ
ودُمْـــتُ مُسَـــيّرًا أهـــدي رعـــيلًا أؤمُّ ســـواد طَـــوْدٍ ذي نقـــابِ

فأجابه شاعرٌ من بني قُرَيْم[1]:

تـــأبَّطُ سَـــوْءَةً وحَمَلْـــتَ شـــرًّا لعلَّـــكَ أن تكـــون مـــن المُصـــابِ
لعلَّـــك أن تجـــيء بـــكَ المنايـــا تُسَـــاقُ لفتيـــةٍ منَّـــا غضـــابِ
فتُصْـــبِحُ فـــي مَكَـــرّهِمِ صـــريعًا وتُصْـــبِحُ طُرْقـــة الضُّـــبُع السِّـــغابِ
فـــزلتم تهربـــون ولـــو كـــرهتم تســـوقون الخـــزائم بالنِّقَـــابِ
وزال بأرضـــكم مِنَّـــا غـــلامٌ طليعـــةُ فتيـــةٍ غُلْـــبِ الرِّقـــابِ

وكأنَّ تأبَّط شرًّا كان يشعر بقرب مَوْتِهِ، وعلى يد الهُذَليين، فقال أبياته هذه بعد قتل أخيه عمرو، وجاءت به المنايا كما قال شاعر الهذليين، ورماه غلامٌ بسَهْمٍ فلم يخطئ لِبَّتَه حتى خرج منه السَّهم، ووقع في مكرّهم في البطحاء صريعًا، وصار فريسة للضباع، تمامًا كما أخبر شاعرُ الهذليين.

ثالثًا- نقائض للهجاء أو للهجاء والتوعُّد أو للهجاء والعتاب (محورها غير الحرب والنساء):

فنُّ الهجاء من أكثر فنون الشعر اتصالًا بالحياة والواقع؛ لأنَّ الهجاء نقدٌ للحياة، يأخذ مادته من الحياة، ويستمدّها من الواقع لا من الخيال، والهجَّاء ناقدٌ بطبعه عيّاب، تقع عينه على أخطاء الناس وعيوبهم، ولا تسترعيه مآثرهم وفضائلهم[2]. ولما كان الهجاء يتّسم بالواقعية ويبتعد عن الخيال والتكلّف كان أصحاب المطبوع أقدر عليه من أهل المصنوع؛ إذ إنَّ الهَجْوَ كالنادرة التي إذا

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٨٤٨. طرقة: فريسة، وزلتم: ما زلتم، الخزائم: البقر، واحدتها: خَزُومة، والنقاب: الثنايا، والمصاب: الذين يصابون.

(٢) انظر: الهجاء والهَجَّاءون في الجاهلية، للدكتور محمد محمد حسين، (ط مكتبة الآداب بالجماميز، ١٩٤٧م).

جَرَتْ على سجيّة قائلها، وقَرُبَت من يد متناولها، وكان واسع العطن كثير الفِطَن، قريبَ القلب من اللسان، التهبت بنار الإحسان(١).

ونعودُ فنؤكّد ما قُلْناه في بداية حديثنا عن البنية المعنوية للنقائض، وهو أننا قَسَّمنا النقائض حسب المعنى الغالب أو الأظهر أو المحور، وليس معنى هذا أنَّ النقائض خِلوٌ من المعاني الأخرى أو أنَّنا سنُغْفلها، والمعنى الغالب هنا هو الهجاء، ولا يعني هذا أنّ ما تقدَّم من النقائض خلا من الهجاء، وأيضًا فليس معناه أنَّ ما سنعرضه من نقائض في هذا المبحث ليس فيه إلا الهجاء.

هجا أبو بُثَينة القُرَمي ساريةَ بن زُنيم هجاءً شديدًا فيه إقذاع، هجاءً يُشْبه السيل الجارف، فليلتمسْ ساريةُ إذن مكانًا مرتفعًا يرجو به النجاة؛ إنه شبَّه أبا ساريةَ باست الثور، وعيّره وقومه بالرجل الذي ذبحوه فأكلوه، كما تفاخر عليه بشعره الغزير، قال(٢):

أساريةَ الذي يُهْدِي إلينا ... قصائده ولم يَعْلَمْ حَفِيلي
ولم يَعْلَمْ بمشرانا زُنَيْمًا ... عِجانَ الثور ساريةُ بن غُولِ
فهل تأوي إلى المنجاةِ إنّي ... أخاف عليك مُعْتَلَجَ السُّيُولِ
وأَوْفَى وَسْطَ قَرْنِ كُرَاشَ داعٍ ... فجاءوا مثلَ أفواهِ الحَسِيلِ
لقِطْعَةِ أَيْرِهِ ولِخُصْيَتيهِ ... وقالوا حبَّذا ريحُ الجميلِ

فكذَّبه ساريةُ بنُ زنيم في ادعائه غزارةَ الشعر، ثم هجاه وقومه هجاءً مُقذعًا أيضًا؛ فاتهمهم بالفُحْش، والإقامة في بيوت الفاجرات، وشبَّههم بالتيوس التي تَتَغَذَّى ببولها أو بِمَذْيها، وذكَّرهم التنكيلَ بهم يوم أغرار، قال(٣):

بَلَى إنّي بَلَوْتُ لديكَ شعرًا ... قليلًا عند تِنْبالٍ ذليلِ

(١) انظر: زهر الآداب، للحُصْري (ت ٤٥٣هـ)، ط دار الجيل، الطبعة الرابعة، ٣/ ٦٨٩.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٧٣١، ٧٣٢. حفيلي: كثرة شعري، والمنجاة: ما ارتفع من الأرض، وكُراش: جبل، والحسيل: البقر، واحدته: بقرة، وعجان: است أو عنق.

(٣) نفسه، ص ٧٣٣. امرأة واضعة: فاجرة، ويشوبون: يمزجون، والناطل: مكيالٌ لهم للخمر، والثميل: بقية الماء الذي يبقى على الحرِّ، وقيل: النواطل. النبيذ والثميل: اللبن الحامض، والشرك: بلد، وقفيل: جَبَل خشن، وأغرار: جبل، وفقماء: داهية، وتنبال قصير.

قُعُـــودٌ فـــي بيـــوتٍ واضـــعاتٍ يشـــوبون النواطـــلَ بالثميـــلِ
كـــأنَّكُمُ تُيُـــوس الشِّـــرْكِ غَـــذَّتْ علـــى أذقانهـــا بشَـــفَا قَفِيـــلِ
فإنَّـــا يَـــوْمَ أَغْـــرارٍ فَعَلْنَـــا بكـــم فَقْمَـــاءَ واضـــحة المثـــولِ

وهو هجاءٌ –كما نرى– تَوجَّه نحو الصفات الخِلْقية؛ فقد وصفه بالقصر، ثم تَوَجَّه نحو الصفات الخُلُقية؛ فاتهمهم بالبُخْل؛ إنَّهم يخلطون النبيذ باللبن الحامض، وشبَّههم بالتيوس في كونهم يتغذَّون بأبوالهم ومَذْيهم، وذلك لقُبْحهم ونتنهم، وهم أيضًا طُرْقة؛ يَطْمع فيهم عَدَوُّهم، ويُنكِّل بهم.

وتُشْعِلُ ناقةُ عمرو بن قيس المخزومي نارَ الهجاء بين بني مخزوم وبني قُرَيم، والقصة: أنَّ ساعدة بن عمرو القُرَمي قتل ناقة عمرو بن قيس المخزومي خطأ، فَغضِب عمرو وقال شعرًا، فهدَّأه ساعدة، وأخبره بأنه سيعقل ناقته، لكنَّ الهجاء طال بينهما، حتى نال هجاؤهما بني قُرَيم عامَّة، فغَضِبَتْ بنو قُرَيم فردُّوهم إلى بني مخزوم. قال عمرو بن قيس يذكر غضبه، ويعاتب مواليه[1]:

أصـــابكِ ليلـــةَ العَوْصـــاءِ عَمْـــدًا بسَـــهْمِ الليـــلِ ســـاعدةُ بـــن عمـــرو
فلـــم تقتـــل بهـــا ثـــأرًا ولكـــن لمـــولاكم أخـــي ثقـــةٍ ونَصْـــرِ
أجِنِّـــي كُلَّمـــا ذُكِـــرَتْ قُـــرَيْمٌ أبيـــتُ كـــأنَّني أُكْـــوَى بجَمْـــرِ

فأجابه ساعدة بن عمرو[2]:

ألا إنَّـــا ســـنَعْقِلُ أُمَّ جَعْـــرٍ شـــياهًا بـــين حـــائرةٍ وجَفْـــرِ

وكان عمرو بن جُنَادة الخُزاعي رجلًا هجَّاء فاحشًا، وإنه أراد أن يهجو عمرو بن هُمَيل اللِّحْياني، فلقيه بسوق مِنًى، وكساه بُرْدًا، ولا يريدُ من وراء ذلك إلا هجاء الرجل وتعييره، ولمَّا رجع عمرو بن هُمَيل إلى قومه، ورَأَوْا البُرْد عليه

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٨٠١. أَجِنِّي: من أجل أنِّي.
(٢) نفسه، ص ٨٠١. أم جَعْر: ناقته، وحائرة: شاة مهزولة، والجَفْر: الجَدْي.

سألوه عن مصدره، فأخبرهم بوصف مَنْ كساه هذا البُرْد، فعرفوا أنه عمرو بن جُنَادة، وأنه هاجيه لا شكَّ في ذلك، فبينا هو قاعد لم يفجأه إلا رجلٌ يتغنَّى بهجائه. فخرج عمرو بن هُمَيل بالبُرْد، وربطه في ساحة دار عمرو بن جُنادة بين شجرتين، وترك الريح تضرب به، فأصبحوا فرأوا الثوب، فقالوا له: هذا الثوب الذي كَسَوْتَ عمرو بن هُمَيل، ووالله ليُقَطِّعَنّا وإيَّاك بالهجاء، ولا والله ما علا جِلْدَه حين أخذه! فقال عمرو بن جُنَادة[١]:

فـــلا والله لا أكســـو غلامًـــا ... دَعَـا ليحـانَ يومًـا مـا حييـتُ
وقـــالوا خيرَنـــا عمـــرو فلمَّـــا ... كســـوتُ الثـــوبَ خيـــرَهُمُ لُحِيْـــتُ
لقـد أسـرفتُ حـين كسـوتُ ثـوبي ... مزابِـــدَ بالحجـــاز لهـــا كتيـــتُ
يظـــلُّ رئيســـهم بالســـيف صَـــلْتًا ... إذا مـــا قيـــل قـــد ضَـــحِي الحَمِيْـــتُ

فأجابه عمرو بن هُمَيْل اللّحْياني[٢]:

ألا مَـــنْ مُبْلـــغُ الكعبـــيّ عنِّـــي ... رســـولًا أَصْـــلُها عنـــدي ثبيـــتُ
فإنَّـك لـم يُصِـبْ بـكَ جَـدُّ صِـدْقٍ ... هجـــاؤك معشـــرًا وهُـــمُ صُـــمُوتُ
فـــلا والله ألـــبس ثَـــوْب عمـــرٍو ... ولـــو قَـــلَّ الثيـــابُ ولـــو عَرِيْـــتُ
كَسَـوْتَ علـى شَـفَا تَـرْحٍ ولُـؤْمٍ ... وأنـــتَ علـــى دَريسِـــك مُسْـــتَميتُ
تَعَلَّـــمْ أنَّ شـــرَّ فَتَـــى أنـــاسٍ ... وأَوْضَـــــعَهُ خُزَاعِـــــيٌّ كَتيـــــتُ
إذا شَـرِبَ المُرِضَّـةَ قـال أَوْكِـي ... علـى مـا فـي سـقائك قـد رَوِيْـتُ

إنها رسالةٌ شديدةٌ من عمرو بن هُميل إلى عمرو بن جُنادة، مُفَادها: إنَّك يا عمرو أخطأت وأجرمت حين أقدمت على هَجْوِ قومٍ لم يتعرَّضوا لك، وإني والله

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٨١٩. لُحِيْتُ: هُجِيْتُ وشُتِمْتُ، ومزابد: جمع مِزْبَد، وهو الذي يُمْخَضُ فيه اللبن والزُّبد، وصلتًا: قد شهره، والحميت: زقٌّ فيه زُبْدٌ أو سَمْن.

(٢) نفسه، ص ٨٢٠، ٨٢١. جَدَّ: حظّ، وألبس: لا ألبس، والشَّفا: الحَرْف، وتَرْح: الفقر والقِلَّة، وكتيتُ: بخيل، والمُرِضَّة: الحامض يُحْلَب عليه الحليب، و أَوْكِي شُدِّي السِّقاء.

لا ألبس ثوبك هذا الذي كسوتنيه على لُؤْمٍ وخُبْثٍ وإنْ لم أَجِدْ غيره، وأنت ما فعلتَ هذا إلا لخسّتك ووضاعتك. ثُمَّ إنَّك بخيل جدًّا، وأنَّي يجود البخيل بمثل هذا البُرْد؟! إنَّك تشرب الحامض وتقنع به، بل تبخل حين تشربه أيضًا، فتغلق إناءَك سريعًا، ضنًّا به وبُخْلًا.

وقد عَمَدَ صَخْرُ الغيّ[1] إلى جارٍ لبني خُنَاعة بن سعد بن هُذَيل فقتله، وهو رَجُلٌ من مُزينة، وكان المُزَني جاور آل المُثَلَّم، فحرَّض أبو المُثَلَّم قومه عليه، وأمرهم أن يطلبوا بدمه، فبَلَغَ صَخْرًا أنَّ أبا المُثَلَّم توعَّده وحرَّض عليه، فقال[2]:

ليتَ مُبَلِّغًا يأتي بقولي ... لقاء أبي المُثَلَّم لا يَريثُ
فيخبرَه بأن العَقْلَ عندي ... جُرَازٌ لا أَفَلُّ ولا أنيثُ
سمعتُ وقد هَبَطْنَا من نُمَارٍ ... دعاءَ أبي المُثَلَّمِ يستغيثُ
يُحَرِّضُ قَوْمَه كي يقتلوني ... على المُزَنِيّ إذ كَثُرَ الوعوثُ
وكنتُ إذا سمعتُ دعاءَ داعٍ ... أَجَبْتُ فلا أَلَفٌّ ولا مكيثُ

إنَّ صَخْرًا لا يعبأ بوعيد أبي المُثَلَّم وقومه، ولن يُعْطِيَهم دِيةَ المُزَني، وإنما سيعطيهم سيفه البتَّار، إنه لا يخشى ولا يخاف هذا التحريض، بل يجيب مَنْ دعاه إلى كريهة أو حَرْب. فأجابه أبو المُثَلَّم، وردَّ عليه ما قال، فهو ليس ذاك الداعي الذي يَنْصَب أو يتردّد، وإنما سيمضي إلى ما أذاع، وسيُنْفِذُ وعيده. كما

(١) صخر الغيّ شاعر جاهلي، لُقِّب بذلك لخلاعته وشدَّة بأسه وكثرة شرّه. انظر في ترجمته: الشعر والشعراء، ص ٦٦٨.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٢٦٢، ٢٦٣. لقاء: تلقاء: ولا يريث: لا يُبطئ، والعقل: الدية، وجراز: السيف، ،أَفَلُّ: به تكسّر وفلول، والأنيث من السيوف: الذي من حديد غير ذكر، وغار: جبل، والوعث: الفساد. وألَفُّ: ثقيل، ومكيث: بطيء محتبس.

حذَّره غِبَّ قوله وفعله، فالذي لا يُعْطي عَقْله إلا بالسَّيف يُوشك أن يضربه رجلٌ خبيثٌ من عشيرته بالسيف، قال(١):

فإنَّــك قــد سَــمِعْتَ دعــاءَ داعٍ فغيــري ذالــك الــداعي الكَرِيْــثُ
لعلِّــي إنْ دعوتُــكَ مــن قريــبٍ إلـــى خيـــرٍ لتأتيـــه تريـــثُ
ومَـنْ يـكُ عَقْلُـهُ مـا قـال صـخرٌ يُصِـــبْهُ مـــن عشـــيرته خبيـــثُ
فـــلا وأبيـــك لا ينفـــكُّ منِّـــي إليـــك مقالـــةٌ فيهـــا وعـــوثُ

فأجابه صَخْر، وافتخر عليه بقومه، وعيَّره بسُكْناه في موضع باردٍ سيئ(٢):

وخَفِّضْ عليك القَوْلَ واعلَمْ بأنَّني من الأَنَسِ الطاحِي الحُلُولِ العَرَمْرَمِ
أَبَتْ لـي عمرو أنْ أُضَامَ ومازنٌ وقِـــرْدٌ ولِحيـــانٌ وسَـــهْمٌ فَسَـــلّمِ
إذا هـو أمسـى بـالحِلاءةِ شـاتيًا تُقَشِّـــرُ علـــى أَنْفِـــهِ أمُّ مِـــرْزَمِ

فأجابه أبو المُثَلَّم، ووضع مناقب ومآثر في مقابل المناقب، ومثالب في وجه المثالب، فافتخر بقومه، وعيَّره بسكناه في مكانٍ بَرْدُه لا يُقْلِع أبدًا، ويُصَيِّرُ الطويلَ من الأصابع قصِيرًا، قال(٣):

أعيَّرتنـــي قُـــرَّ الحَـــلاءةِ شـــاتيًا وأنـــتَ بـــأرضٍ قُرُّهـــا غيـــر مُـــنْجِمِ
بهـــا يـــدعُ القُـــرُّ البنـــانَ مُكَزَّمًـــا وكـــان أســـيلًا قبلهـــا لـــم يُكَـــزَّمِ
فـإنْ تنْفنـي إلـى الحـلاءة تَنْفـي إلـى أنـسٍ طـاحِي الحلـول عَرَمْـرَمِ

(١) كتاب شرح أشعار الهُذَليين، ص ٢٦٤، ٢٦٥.

(٢) نفسه، ص ٢٦٦. الأنس: الحيّ، والطاحي: المنتشر الواسع، والحلول: النزول، والعرمرم: الشديد الكثير، وعمرو ومازن وقِرْد ولِحيان وسهم: قبائل من هُذَيل، والحِلاءة: موضع، وأمُّ مِرْزم: الشَّمال الباردة.

(٣) نفسه، ص ٢٦٨. القُرُّ: البرد، ومُنْجم: مُقْلع، ومُكَزَّم: مُقَفَّع يتَقبَّض حتى يقصر، وأسيلًا: طويلًا.

فيجيبه صخرٌ مستمرًّا في فخره بقومه، وما أعدّه من سلاح وعُدّة، ويُهدِّده ويتوعده، ويُعَيِّره بقَتْلى ذي خَبَب، يقول[1]:

أبـا المُـثَلَّمِ إنّـي غيـر مُهْتَضَـمٍ إذا دعـوتُ تميمًـا سـالتِ المُسُـلُ
أبـا المُـثَلَّم قَتْلَـى أهـلِ ذي خَبـبٍ أبـا المُـثَلَّم والسَّـبْيَ الـذي احتملـوا

فيردُّ عليه أبو المُثَلَّم، ويذكر سلاحًا في مقابل السلاح، وفخرًا بإزاء الفخر، ثم يُفَسِّرُ حادثة ذي خبب تفسيرًا مختلفًا يدفع به التهمة عن أصحابه، ويُوَجِّه المَعْنَى توجيهًا آخر، خلاصته: أنَّ الحرب ليس وراءها إلا القتل، وهؤلاء الفتيان خرجوا لشرف قومهم، وحاربوا ولم يَجْبُنُوا، لكن دارت الدائرة عليهم فَقُتِلوا، فأين المعرَّة إذًا؟! إنها في الحقيقة مفخرة؛ أن يقاتل المرء، لا يفرُّ ولا يجبن، حتى ينتصر أو يُقتل، قال أبو المُثَلَّم[2]:

يـا صـخرُ إنْ تـكُ ذا بَـزٍّ تُجَمِّعُـهُ فـإنَّ حَوْلَـك فتيانًـا لهـم حُلَـلُ
يـا صـخرُ وَيْحَـك لِـمْ عيَّرتنـي نفـرًا كـانوا غـداةَ صـباحٍ صـادقٍ قُتِلـوا
يـا صَـخْرُ ثُـمَّ سَـعَى أُخْـوانُهم بهـمُ سَـعْيًا نجيحًـا فمـا طُلُّـوا ومـا خَمَلُـوا

وبقيت لنا في هذا المبحث نقيضة واحدة، هي نقيضة أبي العيال[3] وبدر بن عامر، وهي نقيضة إسلامية طويلة؛ عبارة عن عدَّة قصائد. والشاعران رجلان من هُذَيل كانا يسكنان مصر، يقال لأحدهما –كما تقدَّم–: أبو العيال، وللآخر: بدر بن عامر، فبينما ابن أخٍ لأبي العيال قائمٌ عند قومٍ ينتضلون إذ أصابه سهمٌ فقتله، فخاصم في دمه أبو العيال، واتهم بَدْرَ بن عامر أن يكون

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٢٦٩. المُسُل: جمع مسيل، وذي خبب: موضع.
(٢) نفسه، ص ٢٧٣. البَزّ: السلاح، والحلل هنا: السلاح، وطُلَّ (على المجهول): هُدِرَ، ولم يُثْأر به، وخَملوا: صَغُر شأنهم.
(٣) أبو العيال الهذلي شاعر مخضرم. انظر في ترجمته: الشعر والشعراء، ص ٦٦٩.

ضَلْعُه مع القوم الذين يخاصمهم، وخاف أن يُعينهم عليه، فدافع بدرُ بن عامر عن نفسه، وأخذ يسترضي أبا العيال، وامتدحه بقوله(١):

وأبو العيال أخي فَمَنْ يَعْرِضْ له ... منكم بسُوْءٍ يُؤْذِني ويَسُوني
إنِّي وَجَدْتُ أبا العيالِ ورَهْطَهُ ... كالحِصْنِ شِيْدَ بآجر موضونِ
أعيا المجانيقَ الدَّوَاهي دُوْنَهُ ... فَتَرْكنَهُ وأَبَرَّ بالتحصينِ
أَسَدٌ تَفِرُّ الأُسْدُ من عُرَوَائِهِ ... بعوارضِ الرُّجَّاز أو بعيونِ

فكذَّبه أبو العيال، واتهمه بالنفاق، وأنه لا يعتقد ما يقوله من مدح وثناء؛ إذ لو اعتقده لجعله كنزًا يخفيه كما يُخفي الشحيحُ كنزه، واستدلَّ على كذب بدر بن عامر بأنه رمقه كثيرًا في مجالسه وهو يعين أعداءه عليه، ثُمَّ أكّدت الأحداث رجمه وظنونه وعند الرهان يُعرف الجواد من غيره، قال أبو العيال(٢):

إنَّ البلاءَ لَدَى المقاوسِ مُخْرِجٌ ... ما كان منْ غيبٍ ورَجْمِ ظنونِ
فإذا الجواد وَنَى وأخلف مِنْسرًا ... ضُمُرًا فلا توقنْ له بيقينِ
لو كان عندك ما تقول جَعَلْتَنِي ... كنزًا لريبِ الدهر غير ظنينِ
فلقد رمقتك في المجالسِ كلِّها ... فإذا وأنت تُعينُ مَنْ يبغيني
هلَّا دَرَأْتَ الخصم حين رأيْتَهُمْ ... جَنَفًا عليَّ بأَنْسُنٍ وعيونِ

فيغضب بدر بن عامر، ويُنكر على أبي العيال جموده، وأنه قابل معروفه وإحسانه بالشرِّ والإساءة، ويطالبه بمعاملة المِثْل، بالنُّصْح والإحسان والثناء، يقول(٣):

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٤٠٩. أبرَّ بالتحصين: غَلب بالتحصين.

(٢) نفسه، ص ٤١١، ٤١٢. المِقْوَس: حَبْلٌ تُصَفُّ وراءه الخيلُ ثُمَّ تُرْسَلُ، ووَنَى: ضعف وفتر، وأخلف مِنْسَرًا: جماعة خيل، فلا توقن: أنَّ عنده جريًا، والجنف: الميل.

(٣) نفسه، ص٤١٣، ٤١٤. الجدَّاء: التي لا لَبَن فيها ، والشَّحص: التي لا حَمْلَ بها ولا دَرّ، والمنيحة: ناقة أو كُلُّ ذات لَبَن يجعل أحدُ الناس للآخر لبنها ووبرها وولدها.

ومنحتنـــي جَـدَّاء حـين منحتنـــي شَحَصًـــا بمالئـــةِ الحِـــلابِ لَبُـــونِ
وحبوتُـك النُّصْـحَ الـذي لا يُشْـتَرى بالمـــال فـــانظُرْ بَعْـدُ مـــا تحبـــوني
وتأمَّـــلِ السِّـــبْتَ الـــذي أحـــذوكُمُ فـــانظر فمِثْـــلُ إمامـــه فاحـــذوني

يدَّعي بدرٌ أنَّه منح أبا العيال خيرًا كثيرًا كَنَى عنه بالناقة الحلوب، فكان جزاؤه شرًّا كَنَى عنه بناقة جدَّاء لا لبن فيها، ثُمَّ هو لا يريدُ أن يقع فيه أو ينال منه، وأيضًا يريدُ منه أن يحذوه بالثناء كما فعل به، لكنَّ أبا العيال لا يُعجبه هذا، فيردّ عليه معناه، يقول(١):

ومنحتنـــي فرضِـيتَ حـين منحتنـي فـــإذا بهـــا وأبيـــك طيـــفُ جُنـــونِ
جهـراءُ لا تـــألو إذا هـــي أظهـرتْ بَصَـــرًا ولا مِـــنْ عَيْلـــةٍ تُغنينـــي
قَـــرِّبْ حـــذاءَكَ قـــافلًا أو ليِّنًـــا فـــتَمَنَّ فـــي التخصـــيرِ والتليـــينِ
وارجِـــعْ منيحتـــكَ التـــي أَتْبَعْتَهـــا هُوعًـــا وحَـــدَّ مُـــذَلَّقٍ مســـنونِ

يقول أبو العيال: إنَّك منحتني منيحتك، فرضيتُ هيئتها ومَرْآها، فإذا بها طيفٌ من الجِنّ، وإذا بها جهراء لا تُبْصر في النهار، ولا تُغْنِي من الفقر، أتريد منيحةً كهذه؟ إذا فقرِّب حذاءَك لأعطيك مثلها، أو خُذ منيحتك مرَّةً أخرى؛ فإنَّك لم تَهَبْهَا طيّبةً بها نفسُك، وإنما أتبعتها تطلّعَك نفسَك إليها، وأتبعتها عداوةً ولسانًا حديدًا شحيحًا على الخير.

وتستمر محاولات بدر بن عامر لاسترضاء أبي العيال، يقول(٢):

أُهْـدي إليـكَ مَـوَدَّتي ونصـيحتي ثـــم انبعَثْـــتَ مُلاحيًـــا تهجـــوني

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٤١٥، ٤١٦. جهراء: لا تبصر في النهار، ولا تألوا: لا تستطيع، وعَيْلَة: فقر، والقافل: ما لم يُدْبَغْ فهو يابس، واللِّين: الجِلْد المدبوغ، وفتمنَّ: أحذوك كحذوك، يعني: هات ما شئت من الكلام حتى أُعْطيك مثله، والهُوْع: القيء، حدَّ مُذَلَّق مسنون: أتبعتها عداوةً وسنانًا محدَّدًا.

(٢) نفسه، ص ٤١٧.

لكنَّ أبا العيال لا يَقْنَع بهذا الكلام، ولا يشفيه هذا الإعتاب؛ إنه لم يَعُدْ يَرَى مودة تُجاه هؤلاء القوم، ويرى أنَّ مشاربه قَلَّتْ من نحوهم، يقول(١):

نَكِدَتْ عليَّ مشاربي من نَحْوِكم فَصَدَرْتُ وارتدَّتْ عليَّ شئوني

ولا يزال أبو العيال يتهمه بالنفاق، ويتوعده، يقول(٢):

وإخالُ أنَّ أخاكم وعتابَهُ إذ جاءكم بتعطُّفٍ وسُكُونِ
يُمْسِي إذا يُمْسِي ببطنٍ جائعٍ صِفْرٍ ووجهٍ ساهمٍ مدهونِ
فيُرى يَمِثُّ ولا يُرَى في بَطْنه مثقالُ حبَّةِ خَرْدَلٍ موزونِ
يغدو ليُحمَدَ وهو يجني دائبًا شَوْكَ الملامة قَلَّما يُجْدِيني
فاليَوْمَ تُقْضَى أمُّ عَوْفٍ دَيْنَها وتذوقُ حَدَّ مُصَوَّنٍ مكنونِ

يقول أبو العيال: إنَّ بَدْرَ بن عامر قد جاءكم متعطِّفًا ساكنًا، يُريكم أنَّ باطنه صالح، وهو باطنٌ سيئ، ويُظهر لكم اللين، ووراء ذلك الغائلة. وضَرَبَ لنفاقه مثلًا بالرجل المهزول ذي الوجه المتغيِّر والبَطْن الخالي، لكنَّه دَهَنَ وجهه ليُرِي الناس أنَّه مُخْصِبٌ وصاحبُ نِعمة، فتراه يرشح ويبرق كأنه يتقطَّر، وليس في بطنه مثقالُ حبَّةِ خردلٍ من خُبْز. أما أبو العيال فلا ينخدع به، إنَّه يعرف خبيئته، وسيعطيه ثوابها بحدِّ سيفه.

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٤١٨. نَكِدَت: قَلَّتْ، ومشاربي: مطالبي، يعني: لم أُصِبْ حاجتي عندكم.

(٢) نفسه، ص ٤٢٢، ٤٢٣. صِفْر: لا طعام فيه، وساهم: ضامر مهزول، ويَمِثُّ: يَرْشَح، وحَبَّة خَرْدَلٍ: أي من الخبز، وشَوْك الملامة: ما أمَّله منه، وأمُّ عوف: الجرادة، وهذا مثلٌ تضربه العرب، أي نجزيك بفعلك.

البنية الفنية للنقيضة الهذلية

أولاً- التصوير الفنّي:

رَصَد البحث أكثر من ثلاثين موضعًا للتشبيه في نقائض الهذليين، ورصد للاستعارة ستة عشر موضعًا، والسرُّ في طغيان التشبيه على الألوان البيانية الأخرى في نقائض الهذليين، وفي الشعر الجاهلي كُلِّه، هو أنَّه أقربها إلى الفطرة؛ إنه لا يحتاج إلا إلى مجرّد موازنة بين شيئين قُصِد إشراكهما في المعنى، ولا يحتاج إلى كدٍّ في الفكر، ولا إلى إجهادٍ للعقل، إنَّه يحكي حياة العرب في يسرها وعدم تكلّفها، وهو لمحة خاطفة كالغارة التي يشنُّونها، أو المدة التي يقيمونها في مكان ثم يرتحلون(١).

والتشبيه يَرْفَعُ شأن الكلام، ويخلع أشعة البهاء عليه، ويمهِّد له طريقًا مُعَبَّدًا في ثنايا النفوس، ويفتح أمامه باب القبول في أطواء الصدود، حيثما وقع لا يخلو من فوائد، ومن فوائده -غير ما تقدَّم-: الإيجاز والاختصار، والتبيين والتوضيح، وهو مزيّته الكبرى، والمبالغة، والتوكيد(٢). أما الاستعارة فإنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، و«ترى بها الجماد حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والأجسام الخُرْس مبينة، والمعاني الخفيَّة باديةً جليّة»(٣). ويمكن أن نُجمل خصائصها في: التزيين أو التجميل، والاختصار أو الإيجاز، والإيضاح(٤).

---

(١) انظر: شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، ص ٢٧٣.

(٢) انظر: فنُّ التشبيه، للدكتور علي الجندي، مكتبة نهضة مصر، ط١، ١٩٥٢م، ١/ ٥٨.

(٣) أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، ط دار المدني، ص ٤٢، ٤٣.

(٤) انظر: البلاغة العربية فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)، للدكتور فضل حسن عبّاس، دار الفرقان، ط١١، ص ٢٣٨.

وسنعرض للصورة الفنية في نقائض الهذليين حسب مصادرها التي استُقِيَتْ منها؛ فهذا من شأنه أن يكشف لنا طبيعة حياة هؤلاء الناس، وثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم، ونظرتهم إلى البيئة من حولهم.

وقد أخذ شعراء النقائض الهذلية صورهم من البيئة المحيطة بهم، من الأرض وما فيها من جبال وأنهار وأشجار وحيوان وطَيْر، ومن السماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وسُحُب، واستمدّوها أيضًا من أدوات معيشتهم، ومن عاداتهم وتراثهم وشعائرهم، وفيما يلي عرضٌ لهذه المصادر بشيء من التفصيل.

١ – الحيوان:

أكثر الصور التي رصدناها استمدَّها الشعراء من الحيوانات؛ التي يُرَبُّونها أو يشاهدونها في حِلِّهم وترحالهم، وأكثر هذه الحيوانات حضورًا الناقة، فكثيرٌ من الصور الفنيّة مُتَعَلِّق بهذا الحيوان، وهو جزءٌ أصيل –كما لا يخفى– من بنية القصيدة الجاهلية؛ فهي تبدأ بالبكاء على الأطلال، ووصف المحبوبة، ووصف الناقة. الناقة جزءٌ أصيلٌ من حياة هؤلاء الناس، يعرفونها كما يعرفون أنفسهم وأبناءهم، يعرفون خَلْقَها وخُلُقَها، وعاداتها وتقاليدها، لا يخفى أيٌّ من هذا على المخاطِب والمخاطَب، ومن ثَمَّ يُشَبّهون بها أو بما يتعلَّق بها إذا ما أرادوا إيضَاحًا لمعناهم وتقوية له، ويستعيرون حالاتها وعاداتها وصفاتها لإخراج المعقول إلى المحسوس، والغامض إلى الواضح.

يُشَبِّه مالك بن خالد الحرب التي تجيء بما يكرهه الناس من قتلٍ وجرحٍ وهلاكِ مالٍ، بالناقة التي لا أخلاف لها وتلد الذكور، وهو مكروه من الإبل، فكما أنَّ هذه الناقة مكروهة لأنه لا خير فيها، فكذلك الحرب مكروهة لأنه لا خَيْرَ فيها، يقول(١):

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٤٥٣.

فـبعضَ الوعيـدِ إنَّهـا قـد تَكَشَّـفَتْ لأشـياعها عـن فَـرْجِ صَـرماءَ مُـذْكِرِ

ولمَّا أخذ خالدُ بن زهير أمَّ عمرو من أبي ذؤيب، اتهمه أبو ذؤيب بخيانة الأمانـة، وقـد كانـت أمانـة عظيمـة، وحِمْـلًا ثقيلًا جـدًّا، يُشبه مـا تحملـه الإبـل الخراسانية القويـة من المسيرة، وقد أتت قريـةً كثيرًا طعامها، وقيل لها: تحَمَّلي طاقتك، فما حُمِّلَتْهُ هذه البخاتي من الطعام بأكثر مما تَحمَّل خالدٌ من الأمانة، يقول أبو ذؤيب[1]:

مـا حُمِّـلَ البُخْتِـيُّ عـام غيـارِهِ عليـه الوُسُـوقُ بُرُّهـا وشـعيرُها
أتـى قريـةً كانـت كثيـرًا طعامُهـا كرَفْـغِ الثُـرَابِ كـلُّ شـيءٍ يميرُهـا
فقيـل تَحمَّـلْ فـوقَ طَوْقِـكَ إنَّهـا مُطَبَّعـةٌ مـن يأتهـا لا يضـيرها
بأثقـلَ ممَّـا كنـتُ حَمَّلْـتُ خالـدًا وبعـضُ أمانـاتِ الرِّجـال غرورُهـا

وقال البُرَيْقُ الخُنَاعي في وَصْفِ السحاب[2]:

بمرتجـــزٍ كـــأنَّ علـــى ذراهُ ركـــابَ الشـــأْمِ يحملـــن البهـــارا

شبّه السحاب المُثقل بالماء بالبعير الذي يحمل على ظهره الأمتعة الثقيلة. وشبهه أيضًا بالإنسان الذي يرتجز، وحذف المشبّه به على سبيل الاستعارة المكنية. أو أنه شبَّه الرعد بالارتجاز، وجاء بيرتجز على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وفي ردِّ سُوَيد بن عامر على عمرو بن هُمَيل اللحياني تشبيهٌ للحرب بالناقة، قال سُوَيد[3]:

عَجِبتم لشَأْنِ الحَرْبِ أنْ أعقبتكُمُ وأيَّـةُ أُنْثَـى حامـلٍ لـم تُحَـوِّلِ

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٢٠٧، ٢٠٨. يقال للأرض الكثيرة التراب: رَفْغٌ من الأرض، وفَوْق طوقك: طاقتك، ومُطَبَّعة: مملوءة مُوَقَّرة.

(٢) نفسه، ص ٧٤٢.

(٣) نفسه، ص ٨١٧.

والمعنى: عجبتم من أن صارت الدولة لكم، وأيُّ قومٍ لم يُدَلْ منهم؟! فلابُدَّ من يَوْمٍ ويَوْمٍ. ثم جاء بهذا التشبيه الجميل ليؤكّد معناه، فقد شبَّه عدم استقرار كفَّة الحرب في ناحية واحدة، بالناقة التي لا تثبت في نتاجها على حالٍ واحدة، فمرَّةً تَلِدُ ذكرًا ومرَّةً تَلِدُ أُنْثَى.

والناقة حين يموت ولدها بعد ولادته، يَعْمَدُ صاحبها إلى جِلد الحوار (ولدها)، ويحشوه تِبْنًا، ويقرّبه من أمِّه من وراء حجاب، فتشمّه وتدرُّ عليه، ويُسَمَّى هذا الجِلْد المَحْشوّ "الرأم والبوّ"، وقد رأينا إياس بن جُنْدَب بن المعترض يُشبِّه ابن نَجْدَة في حديثه مع النساء واستعطافه لَهُنَّ بهذا البَوّ أو الرأم، يقول[١]:

تُغَنِّـــي نِسْـــوَةً كَنَفَـــي غُضَـــارٍ كأنَّـــــك بالنشـــــيد لَهُـــــنَّ رامُ

ويستعير صخر الغيّ في هجائه أبا المُثَلَّم الناقة العَضوض سيئة الخلق عند النتاج، التي تمنع حالبها وولدها إلا بعسر، المُسِنَّة ذات الناب الأعصل، يستعيرها للحرب القديمة والشرّ القديم، يقول[٢]:

أبـا المُـثَلَّم مَهْـلًا قبـلَ باهظـةٍ تأتيـكَ مِنِّـي ضَـرَوسٌ نابُهـا عَصِـلُ

وقال بدر بن عامر في ردّه على أبي العيال[٣]:

ومنحتنـــي جـــدَّاء حـــين منحتنـــي شحَصًـــا بمالئـــةِ الحِـــلابِ لَبُـــونِ

المنيحة هي الناقة أو كُلُّ ذات لبن يجعلُ أحد الناس للآخر لبنها وولدها ووبرها، والناقة إذا كانت جَدَّاء لا لبنَ فيها فهي منيحةٌ لا خيرَ فيها، وإذا كانت حلوبًا غزيرة اللبن فهي منيحةُ خيرٍ وبركة، وقد استعار بدر بن عامر منيحة

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٨٣٦.

(٢) نفسه، ص ٢٧٠.

(٣) نفسه، ص ٤١٣.

الناقة الحلوب للخير واللثناء الذي يُقَدِّمه لأبي العيال، واستعار منيحة الناقة الجدَّاء للشرِّ والإساءة والنفاق الذي يقابل به أبو العيال منيحته.

لكنَّ أبا العيال لا يُسَلِّم له بهذا الذي ادعاه، يقول(١):

ومنحتني فرضيت حين منحتني فإذا هي وأبيكَ طيفُ جُنونِ

جهراءُ لا تألو إذا هي أظهرتْ بَصَرًا ولا مِنْ عَيلةٍ تُغنيني

استعار المنيحة التي منظرُها حَسَنٌ لكن حقيقتُها أنّها طيفُ جنون لمَدْحِ بدر بن عامر وثنائه، إنها منيحة لا تنفع صاحبها؛ فهي لا تَرَى في نهار، فلا يُنْتَفع بها، ولا تنتفع هي بنفسها، ولا تُغْني من فقر، إنَّها كالسراب، الذي يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، تمامًا كثناء بَدْرٍ ووعوده وتجمّله واعتذاره.

وقد جَرَى العرب القدماء والمحدثون على تشبيه الشجاع بالأسد(٢)، ومن هذا في نقائض الهذليين قولُ البُرَيق في رثاء أخيه(٣):

فما إنْ شابكٌ من أُسْدِ تَرْجٍ أبو شِبْلين قد منع الخدارا

بأجرأ جُرْأةً منه وأدهى إذا ما كاربُ الموت استدارا

وقد شبَّه جُرْأة أخيه في الحرب بجرأة أَسَدٍ من أُسْدِ تَرْجٍ، قد اشتبكت أنيابه، يَحْمِي خِدْره وولده وعرينه من عدوّه.

ومنه أيضًا قول أبي عامر بن أبي الأَخْنَس الفَهْمِيّ(٤):

أقائدَ هذا الجيش لَسْنَا بِطُرْقةٍ ولكن علينا جِلْدُ أَخْنَسَ قَرْثَعِ

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٤١٥.

(٢) انظر: جواهر البلاغة، للهاشمي، المكتبة العصرية، ط١، ص ٢٤٦.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٧٤٤.

(٤) نفسه، ص ٦٠٤.

يُشَبِّهُ قومه في بأسهم وشدَّتهم وشجاعتهم بالأُسْد في بأسها وشدّتها وشجاعتها؛ فهم ليسوا لُقْمَةً سائغة، وليسوا مِمَّن يُطْمَعُ فيهم.

وقال أُميَّة بن أبي عائذ في ردّه على إياس بن سهم بن أسامة(١):

ومِن حُبِّكم يا خَيْرةَ الناس كُلِّهِمْ صَلِيْتُ بحامٍ شابكِ النابِ مُشْبِلِ
مُشِبٍّ لَدَيْهِ شِبْلُهُ مُتَقَبِّضًا على حذرٍ ضارٍ بعَدْوةِ فَيْصَلِ
تَكَنَّفي السِّيْدان سِيدٌ مواثِبٌ وسِيْدٌ يُتَالي زَأْرَهُ بالتبلُّلِ
فيَعْذِمني هذا بعُصْلٍ شوابكٍ وهذا بجُبْنٍ حَدُّها لم يُفَلَّلِ

يتودَّد أُمَيّة بهذه الأبيات لأمّ نافع، فلأجلها تعرَّض لأذى كثيرٍ من خاله سهم بن أسامة وابن خاله إياس، وقد صوَّر نفسه أَسَدًا، يحيط به أسد قويٌّ، ومعه شبله الشابّ، إشارةً إلى خاله وولده، وبيَّن كيف يعضّه الأَسَدُ المسنّ بأسنانه العُصُل، ثم يتبعه ولده بأسنانه القوية المعوجّة التي لم تُفَلَّل، فيدفع هذا مَرَّة، ويصيبه ذاك مَرَّة أخرى، لكنَّه مع إصابته ثابت لم تتزلزل أقدامه، تلكم المعركة حامية الوطيس كانت لأجل أمّ نافع.

ولم تَخْلُ حياة الهُذَليين من حيوان التيس، ولا نقائضهم أيضًا؛ يأكلون لحمه، ويأكلون به لحوم الناس وأعراضهم حين يُشَبّهونهم به، يقول عمرو بن هُمَيل في رَدِّه على هَجْو عمرو بن جُنَادة(٢):

أَبَى لي صارخٌ كالسَّيْلِ نَهْدٌ وعِزٌّ لا يزول لنا ثبيتُ
تيوسًا خيرها تيسُ شآمٍ له بسوائل المَرْعَى صتيتُ
فحقُّك أن تقول وذاك حقٌّ تَبَغَّيْتُ الكُوَاةَ فقد كُوِيتُ

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٥٣١. السِّيْد: الأسد عند هُذَيل، ويعذمني: يعضّني.
(٢) نفسه، ص ٨٢٢، ٨٢٣. ثبيت: ثابت، ونهد: ضخم، وصتيت: صوت.

شبَّه عمرو بن هُمَيل قَوْمَه حين يستصرخهم ويأتون لغوثه بالسيل الضخم؛ إشارة إلى سُرْعَة نجدتهم وكثرتهم. ثُمَّ شبَّه قومَ عمرو بن جُنَادة بالتيوس؛ مشيرًا إلى غباوتهم وحماقتهم. كما شبَّه الهجَّائين بالكُوَاة، وشبَّه الهجاء بالكيّ بالنار، بجامع الألم في كُلٍّ منهما.

ونَرى ذكر التيس مَرَّة أخرى عند عمرو بن هُمَيل اللحياني، لكن هذه المَرّة في هَجْو سُوَيد بن عامر الخُزَاعي، يقول(١):

وكُنَّا إذا ما الحَرْبُ ضُرّس نابُها ... نُقَوّمها بالمَشْرفِيّ المُقَلَّلِ

ألم يَعْلَمْ التَّيْسُ الخُزَاعِيُّ أنَّنَا ... ثأرنا أبا عمرو وأصحاب جَنْدَلِ

استعار تضريس الناب لشدَّة الحرب وغليناها وتقلُّبها، ثُمَّ إنه شَخَّص الحرب أيضًا، وجعلها إنسانًا له أضراس يسيء وتُقَوّم إساءته. كما شَبَّه سُوَيد بن عامر بالتيس، وصرَّح بالمُشَبَّه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

أمَّا الثور فقد جاء عند خالد بن زهير في قوله(٢):

فلا تكُ كالثور الذي دُفِنَتْ له ... حديدةُ حَتْفٍ ثُمَّ ظلَّ يُثيرها

شبَّه خالدٌ أبا ذؤيب إنْ استمرَّ في هَجْوه وملاحاته بالثور المُصِرّ على حتفه وهلاكه. وجاء الثور أيضًا عند إياس بن سهم بن أسامة في ردّه على أُمَيّة بن عائذ، لكن مقرونًا بالظبي، قال إياس(٣):

فلا تكُ كالظبي الذي ظَلَّ حَيْنُهُ ... يُقَدِّمه في كِفَّة المتحبِّلِ

ولا مثلًا للثور يَبْحَثُ حَتْفَهُ ... دَفْينًا مَتَى يَخْرُجْ من الأرض يُقْتَلِ

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٨١٦. ضُرّس نابُها: ساء خُلُقها، ومُقَلَّل: له قُلَّة تُقِلُّه.

(٢) نفسه، ص ٢١٤.

(٣) نفسه، ص ٥٢٨.

شبَّه إياسٌ أمية حين يُقْدِم على هجائهم وسَبِّهم بالظبي الذي يدفعه حَيْنُه وحُمْقُه إلى شباك صيَّاده، وبالثور الذي يبحث في الأرض ليخرج حديدة مخبوءة، ويُلِحُّ في طلبها وإخراجها، مع أنَّ هلاكه سيكون بهذه الحديدة لحظةَ خروجها.

ويلجأ الصيّادون إلى حيل مُتَعدِّدة للإيقاع بالظِّباء، ومنها الاستخارة، وقد جاءت هذه الحيلة في قول خالد بن زهير يردُّ على أبي ذؤيب[١]:

لعلَّـــك إمَّـــا أمَّ عمـــرو تبـــدَّلَتْ سـواكَ خلـيلًا شـاتمي تسـتخيرها

استعار خالدٌ الاستخارة للاستعطاف، وعبَّر بـ (تستخير)، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وأصلُ الاستخارة أن يأتي الصيَّاد وَلَدَ الظبية في كِناسه، فيعرُك أذنه فيخور، يستعطف أمَّه كي يصيدها، فإذا جاءت الأمُّ أُخِذَتْ. فتستخيرها من الخُوَار، وهو الصوت.

ويُعَيِّرُ حذيفةُ بن أنس البُرَيقَ بن عياض وقومه بأنَّهم لم يفزعوا لقتل سيِّدهم نَوْفل، وكأنّه حمار أصحر[٢] يأكل قُشور الشجر ولحاءَه، شبَّهه في هوانه على أهله بهوان هذه الحمار على أصحابه، قال حذيفة[٣]:

ونحـــن جزرنـــا نَـــوْفَلًا فكأنَّمـــا جزرنـا حمـارًا يأكـلُ القِـرْفَ أصـحرا

أمَّا أبو بُثَيْنة القُرَمَي فقد شبَّه قوم سارية بالبقر، قال[٤]:

فهـل تـأوي إلـى المنجـاةِ إنِّـي أخـاف عليـك مُعْـتَلَجَ السـيولِ
وأَوْفَـى وَسْـطَ قَـرْنِ كـراثَ داعٍ فجـاءوا مثـلَ أفـواه الحسـيلِ

شبَّه هجاءه الحاد المنصب بالسيل الجارف، ثُمَّ شَبَّه هؤلاء القوم حين دُعوا لأكل الرجل الذي ذبحوه بالبقر حين يُدْعَى إلى الطعام فيأتي مُسْرعًا وقد فتح فاه.

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٢١٢.
(٢) الصُّحْرة: بياضٌ في حُمْرة.
(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٥٥٦.
(٤) نفسه، ص ٧٣١، ٧٣٢.

٢- الشعائر والتراث وأدوات المعيشة:

من الشعائر التي يعظمها العرب شعيرةُ الحجّ، وأنت واجدٌ هذه الشعيرة في أشعارهم، ومن ذلك قول حذيفة بن أنس واصفًا الغُزَاة من قومه(١):

لأدركهم شُعْثُ النَّوَاصِي كأنَّهم سوابقُ حُجَّاجٍ تُوَافي المُجَمَّرَا

إنه يُشَبِّه الغزاة الذين شَعِثتْ رؤوسهم من الغزو، بالحُجَّاج المحرمين الذين يرمون الجمار، وقد شَعِثَتْ رؤوسهم أيضًا من أعمال الحجّ.

وقصَّةُ هلاك ثمود لما قتلوا الناقة معروفة للعرب، ومدائن صالح -عليه السلام- في الحجاز مطروقة ومعروفة، وكثيرًا ما كانوا يستحضرون هلاك هؤلاء الناس عند ذكر العذاب والهلاك، ويشبهون الهلاك العظيم والعذاب الشديد بهلاك ثمود، ومن ذلك قول مالك بن خالد يفخر ببني لحْيان حين صَدُّوا خزاعة(٢):

فما ذرَّ قَرْنُ الشمس حتى كأنَّهم بذاتِ اللَّظَى خُشْبٌ تُجَرُّ إلى حُشْبِ

كأنَّ بذي دروان والجِزْعَ حَوْلَهُ إلى طَرَفِ المِقْرَاة راغيةَ السَّقْبِ

شبَّه القتلى بالخُشب التي تُجَرُّ إلى الخُشب، ثُمَّ شبَّه هلاك هؤلاء بالقتل بهلاك ثمود حين رغا سَقْبُ الناقة، وسَقْبُ الناقة هو ولدها الذكر ساعة يُولد.

والمِرْكض الذي يوضع فَوْقه الجَمْر من أدوات المعيشة عند الهذليين، وقد استمدَّ شعراء النقائض منه بعض صُوَرهم، ومن ذلك قول عامر بن العجلان(٣):

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٥٧٧.

(٢) نفسه، ص ٤٤٦. وممَّن ذكر هذه القصَّة: زهير بن أبي سُلْمى في مُعَلَّقته في قوله عن الحَرْب:

فتُنْتِجْ لكُمْ غِلْمانَ أشأمَ كُلُّهمْ كأحمر عادٍ ثُمَّ تُرْضعِ فتَفْطِمِ

قال أبو عبيد: كأحمر عاد وثمودٍ سواء. (انظر: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ط دار المعارف، ص ٢٦٩).

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٣٠٣.

تَـــرَمَّضَ مـــن حـــرِّ نَفَّاحـــةٍ كمـــا سُـــطِح الجَمْـــرُ بـــالمِرْكَض

شبَّه شدَّة حرارته وارتفاعها بسبب لدغة الأفعى بحرارة الجمر المفروش بمسعر النار.

ويشبِّهون بالنار، كما في قول أبي بُثَيْنة الصاهلي[١]:

كـأنَّ القَـوْمَ مِـنْ نَبْـلِ ابـن رَوْحٍ لَـــدَى القَمْـــراءِ تلفحهـــم ســـعيرُ

شبَّه شِدَّة وقع السهام عليهم بلفح النار. أمَّا بدر بن عامر فشبَّه البرد الشديد بالنار المُحْرقة، قال[٢]:

كـــالزمهريرِ إذا يُشَـــبُّ يُميـــتهم بـــالبَرْدِ فـــي طُـــرُقٍ لهـــا وفنـــونِ

فتـرى الـبلاد كأنَّهـا قَـدْ حُرِّقَـتْ بالنَّـــار فالتهبَـــتْ بكـــلِّ وجـــينِ

واستخدموا المعاول والفئوس لقطع الأشجار والأخشاب، واستمدُّوا منها بعض صورهم، كقول بدر بن عامر[٣]:

ولقـد تـوارثني الحـوادثُ واحـدًا ضَـرَعًا صـغيرًا ثُـمَّ مـا تعلـوني

فتركننـــي لمَّـــا رَأَيْـــنَ نواجـــذي فـــي الـــرَّوْقِ مثـل معـاولِ الزيتـونِ

عُصُـلًا قواطـع إنْ تكـادُ لبعـدما تُفْـري صـريعَ عظامهـا تغرينـي

جعل الشاعر الحوادث أعداءً يتناولونه واحدًا بعد واحد، وهو بَعْدُ صغيرٌ جسمُه، لكنَّه كان دائمَ الظَّفَر؛ يقهرهم ولا يقهرونه، حتى إذا أدركه الشباب، وصارت نواجذه مثل الفئوس العظيمة التي تكاد تقطع الشاعر من حدَّتها بعد قطعها عظام الزيتون، حتى إذا كان ذلك أقصرت الحوادث عنه وهابته.

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٧٢٨.

(٢) نفسه، ص ٤٠٨. الوجين: الغليظ من الأرض.

(٣) نفسه، ص ٤٢٠، ٤٢١.

٣- بعض مظاهر الطبيعة، كالنجوم والأشجار والسحاب:

قال الأَبحُّ بن مُرَّة أخو أبي خِراش هاجيًا سارية بن زُنَيم[١]:

عليكَ بني معاوية بن صَخْرٍ فأنت بعَرْعرٍ وهمُ بضيمِ
تُساقيهم على رُصُفٍ وظرٍّ كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ
فلم تتركهم قِصَدًا ولكنْ فَرِقْتَ من المغاور كالنجومِ

شبَّه الأَبَحّ عجز سارية عن مواجهةِ قومه بعجز الدابغة عن إصلاح فساد الجِلد حين يكثُر عليه الدود فيثقبه ويُفْسِده. ثم شبهه في سُرْعةِ فراره وهَرَبه بالنجوم في سرعتها حين تُرْمَى على الشياطين، فوصمه بالعجز أولًا، ثم بالجبن والفرار ثانيًا.

وشبَّه ابن تُرْنَى الهُذَلي صَحْبَه في كثرتهم بالقطيع الكبير من السعالي، وشبَّه بريق سلاحه ولمعانه ببريق القمر ولمعانه، وهذا ينبئ عن جودة مادة صُنْعه، قال[٢]:

بنفسي واحدًا يومًا ويومًا بسُرْبَةِ مَعْشرٍ مثلِ السَّعَالي
فأطعنه بمسنون طريرٍ عليه مثلُ بارقة الهلالِ

واستعار معقل بن خويلد الشجرة شديدة الحُمُوضة ذات الثمار المُرَّة والأشواك الحادة الطويلة لقالة السوء والهجاء، قال[٣]:

ولا تبدرُنَّ الناس مِنِّي بحزرةٍ طويلةِ حدِّ الشوكِ مُرٍّ جناتها

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٦٦٧.
(٢) نفسه، ص ٥٧٤.
(٣) نفسه، ص ٣٩٨.

وشبَّه خالد بن زهير هجاءه الشديد بالمطر الشديد الذي يُنَفِّرُ شياه مَن أقلعَتْ سماؤهم ولم تُمْطِر، وذلك لشدَّة صوته، وصرَّح بالمشبَّه به على سبيل الاستعارة التصريحية، قال(١):

فأقصِرْ ولم تأخذك منِّي سحابةٌ يُنَفِّرُ شاءَ المقلعين خريرُها

وبعد، فهذا هو التصوير الفني في نقائض الهذليين، شكَّل أكثَرَه التشبيهُ، وعاونته الاستعارة. أمَّا مصدره فهو الحياة والواقع، ومن ثَمَّ فهو يتسم بالصدق والواقعية والجمال، ويعكس طبيعة حياة هؤلاء القوم، وتكوينهم النفسيّ، ونظرتهم إلى البيئة من حولهم، وما فيها من أرض وسماء، وحيوان وجماد، وأنهار وأشجار ونبات.

ثانيًا– الكمّ:

تقدَّم ذكرُ الملحق الذي وضعناه في آخر البحث، وهو عبارة عن جدول فيه حَصْرٌ للنقائض في شعر الهذليين، وأزمانها وشعرائها وأسبابها وأرقام صفحاتها في الديوان وعدد أبياتها وأوزانها. ومن هذا الجدول نخرج بالنتائج الآتية:

١– مجموع النقائض في شعر الهذليين أربعٌ وعشرون نقيضة، وهي كالآتي:

– تسع عشرة نقيضة لم تزد عدد مقطوعاتها أو قصائدها عن اثنتين(٢).

– نقيضتان عدد مقطوعات كلٍّ منها أو قصائدها ثلاث.

– نقيضة عدد مقطوعاتها أو قصائدها أربع.

– نقيضة عدد مقطوعاتها أو قصائدها ست.

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٢١٥.

(٢) المقصود بمقطوعتين أو قصيدتين: أنَّ الشاعر الأوَّل قال قصيدة أو مقطوعة فأجابه الثاني بمثلها، والمقصود بثلاث: أنَّ الأول قال فأجابه الثاني فأجابه الأوَّل مرَّة أخرى، أمَّا أربع فمعناها: أنَّ الأوَّل قال فأجابه الثاني فأجابه الأول فأجابه الثاني ... إلخ.

– نقيضة عدد مقطوعاتها أو قصائدها ثمانٍ.

٢– وعلى هذا فمجموع المقطوعات والقصائد اثنتان وستون قصيدة ومقطوعة.

٣– عدد المقطوعات سبع وأربعون مقطوعة.

٤– وعدد القصائد خمس عشرة قصيدة.

ولعلَّك تتساءل: ما السرُّ وراء هذا الكمّ الهائل من المقطَّعات في نقائض الهذليين بصفة خاصة، وفي شعرهم بصفة عامّة؟

أرجع الدكتور أحمد كمال زكي السبب إلى طبيعة الحياة الهذلية(١)، إنها حياةٌ شاقّة مليئةٌ بالصراع والنَّهْب والتنقّل، حياةٌ إيقاعها سريعٌ جدًّا، تأتي أسبابَهامن أقرب سبيل حتى ولو كان فيها الخطر، وسرعةُ الحياة تلزمها سرعةٌ أخرى في الفنّ، والسرعةُ الفنية لا تحتاج إلى تلك الأناة التي تستلزمها القصائد الطوال؛ فهذه سِمَةُ الحياة الآمنة القريرة التي تجد دائمًا من الوقت فسحةً للتفكير الطويل. السرعة الفنية لا تميلُ كثيرًا إلى التطويل، ومن هنا جاءت نقائض الهذليين مقطّعات في أغلبها، بل غلب على شعرهم كلِّه المقطّعات.

وأوافق الدكتور أحمد كمال فيما ذهب إليه، لكن يبقى سؤال: هل هذه المقطَّعات قِيلت هكذا أو أنها قِيلت قصائد ووصلت إلينا مقطَّعات؟ وللإجابة عن هذا السؤال فإننا نحتاج إلى الوقوف مع المعاني التي تؤدّيها هذه المقطوعات هل هي تامّة أو مبتورة؟

إنَّ هناك مقطوعات عبارة عن بيت واحد أو بيتين أو ثلاثة، ومثلُ هذه المقطوعات يقوى معه احتمال سقوط بعض الأبيات بفعل عوادي الزمان. فمثلًا

(١) انظر: شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، ص ٢٣٠.

لم يُحْفظ لنا من قول مالك بن عوف النصريّ في يوم البَوْبَاة إلا بيتٌ واحد، هو[١]:

إِنِّـــي زعـــيمٌ أن تُقَـــاد جيادُنـــا نقـابَ الرَّجِيـع فـي السَّـريحِ المُسَيَّر

وواضحٌ أنَّ الشاعر كان يُمَهِّدُ بهذا البيت للحديث عمَّا ستصنعه خيولهم وفوارسهم بالعدوّ؛ لكنَّ الكلام انقطع عند هذا.

ولمَّا فخر مالكُ بن خالدٍ الخُنَاعي بيومِ بني لِحْيان في سبعة أبيات أجابه رجلٌ من خُنَاعة، ولم يَصِلْ إلينا من قول الرجل إلا بيت واحد، نصُّه[٢]:

فَخَـرْتَ بيـومٍ لـم يكـن لـك ذكـرُهُ وأنـــتَ حـــديثٌ بالرزيئـــةِ والنَّكْـــبِ

الرجل نَقَض عليه قوله بأنه لم يشارك في هذا النَّصْر فلماذا يفخر به؟! ثُمَّ عَيَّرَه بنكبةٍ حديثٍ عهدُها، لكنَّه لم يُفَسِّرها، فهل أعرض عن تفسيرها، أو أعياه المقال، أو أنَّه فسَّرها وضاع هذا التفسير؟

حَتى مع تمام المعنى يَبْقى احتمال سقوط بعض الأبيات من القصيدة قائمًا؛ فالبيت في قصائد الجاهليين وَحْدَةٌ معنويةٌ قائمة بنفسها، والقصيدة تتألَّف من الأبيات المستقلة التي يكتفي فيها كُلُّ بيتٍ غالبًا بنفسه، غير متوقِّف على سابقه، ولا لاحقه؛ ولذلك لا تشعر بخلل عند التقديم والتأخير في بعض الأبيات، بل لا تُحِسُّ بخللٍ ولا اضطراب عند حذف بعض الأبيات من القصيدة؛ إنَّ القصيدة تشبه فضاء الجاهليين الواسع الذي يضمُّ أشياء متباعدة لا تتلاصق[٣].

ومما يدفع في هذا الاتجاه أنَّ بعض النقائض التي قِيلت في الحروب بدأت بدايةً غزلية، فما المانع من أن تكون هناك بدايات غزلية ساقطة من هذه

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٤٣٥.

(٢) نفسه، ص ٤٦٦.

(٣) انظر: العصر الجاهلي، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، ط ٢٢، ص ٢٢٤.

المقطوعات؟ ومن النقائض التي بدأت بداية غزلية في الحرب نقيضة عمرو ذي الكلب اللِّحْياني مع ابن تُرْنَى الهذلي، قال عمرو ذي الكلب[١]:

غَزِيَّـــةُ آذَنَـــتْ قبـــل الزِّيـــالِ وأَمْسَـــى حَبْلُهـــا رَثَّ الوصـــالِ
وأَمْسَـــتْ عَنْـــكَ نائيـــة نراهـــا بشُـــقَّةِ شُـــنَّأٍ غُـــرِّ السِّـــبالِ
ألا قالَـــتْ غَزِيَّـــةُ إذ رأتنـــي ألـــم تُقْتَـــلْ بـــأرض بنـــي هـــلالِ
أَسَـرَّكِ لـو قُتِلْـتُ بـأرضِ فَهْـمٍ وهـلْ لـكِ لـو قُتِلْـتُ غـزِيَّ مـال؟
فـــإنْ أُثقفتمـــوني فـــاقتلوني وإنْ أَثْقَـفْ فسـوف تـرون حَـاليْ

بدأ عمرو ذو الكلب نقيضته بدايةً غزليةً، تحدَّث فيها عن (غَزِيّة)، وسؤالها إياه: كيف نجا من أعدائه المتربّصين به؟ ثم أخذ عمرو يتوعَّدهم، ويستفزّهم، ويصف أصحابه بأنهم أشداء خبثاء، بعد ذلك وَجَّه حديثه لابن تُرْنَى الذي يتوعّده، ونصحه بأن يتوعَّد غيره، وأخذ يصف سلاحه؛ سيفه ورمحه وسهمه، وصفًا دقيقًا، وتحدَّث عن المراقب (أبراج المراقبة) التي كانوا يترصّدون فيها لأعدائهم.

فأجابه ابن تُرْنَى الهذلي، وبدأ بداية غزلية أيضًا بالحديث عن (قَرِيبة)، ثم تحدَّث عن مرقبته التي يمكثُ فيها، وكيف أنَّها في مكانٍ صَعْبٍ، تُزِلُّ الطيرَ من صعوبتها وعُلُوِّها وملاستها، وذكر أصدقاءَه وصحبه الشِّداد، ووصف سلاحه، قال[٢]:

قَرِيبَـــةُ قـــد نَـــأَتْ غيـــرَ السُّـــؤالِ وأَمْسَـــتْ منـــكَ نائيـــةَ الوصـــالِ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٥٦٦، ٥٦٧.

(٢) نفسه، ص ٥٧٣، ٥٧٤.

شُنَّأ: أعداء، ومداهم شانئ، ومشرفة القَذَال: مشرفة الرأس، وذراها: أعاليها، ونَمَيْتُ: ارتفعت، الرَّيْد: حرف نادرٌ من الجبل، وطَفَلًا: حين طَفَلَتْ الشمس، والحوال: المحاولة، واللُّطْف: التلطُّف حتى لا يُرَى.

وأَمسَـــتْ منـــكَ نائيـــةً وحَلَّـــتْ ببلـــدةِ شُـــنَّأٍ صُـــهْبِ السِّـــبالِ
لعَمْـرُ أبـــي قريبـــةَ غيـــرَ فَخْـــرٍ أبيهـــا ذي الكرامـــةِ والجـــلالِ
ومرقبـــةٍ نَمَيْـــتُ إلـــى ذُرَاهـــا تُـــزِلُّ الطيـــرَ مشـــرفةَ القَـــذَالِ
عَلَوْتُ بريْدِها طَفَلًا كأنّي حـــوالَ اللُّطْـــفِ مكســـورُ الشـــمالِ

ثالثًا– الغرابة:

يجدُ القارئ في نقائض الهذليين وأشعارهم ألفاظًا غريبة كثيرة، وهذه الغرابة تقف حاجزًا بينه وبين فهم المعنى والإحساس بجمال الشعر، فهل يُعَدُّ ذلك عيبًا في أشعار الهذليين؟

إنَّ البلاغيين يشترطون في فصاحة اللفظ خلوصَه من الغرابة(١)، وفي هذا الكلام بعضُ نظرٍ وشيءٌ من التفصيل؛ فإنَّ هناك قصائد كثيرة مليئة بالغريب، وهي مع ذلك من عيون الشعر العربي، وأيضًا فإنَّ كُلَّ ما قدّمناه من نصوصٍ للنقائض الهذلية لا يخلو من الغريب، وهو شعرٌ مشهود له بالفصاحة والجودة. ولنستمع مثلًا لقول مالك بن خالد الخُنَاعي(٢):

فِـدًى لبنـي لِحْيـان أمّـي وخـالتي بما ما صَعُوا بالجزعِ رَجْلَ بني كَعْبِ
ولمَّـا رَأَوْا نَقْـرَى تسـيلُ إكامُهـا بـأرعنَ جـرَّارٍ وحاميـةٍ غُلْـبِ
تنـادَوْا فقـالوا يـا لِحْيَـانَ ماصِـعوا عن المَجْدِ حتى تُثْخنُوا القومَ بالضربِ
وضـارَبَهُمْ قَـوْمٌ كـرامٌ أعِـزَّةٌ بكُـلِّ خُفَـافِ النَّصْـلِ ذي رُبَـدٍ غَضْـبِ

(١) انظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، لعبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠١٧م، ص ١١.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٤٦٥. ما صعوا: قاتلوا، والجزع: منثنى الوادي ومنقطعه، ورَجْل: رَجَّالة، وأرعن: جيش كبير له مثل رَعْن الجبل، وحامية: قوم يحمون، وغُلْب: غلاظ الأعناق، ونقرى: موضع، وتثخنوا، تثقلوا، وخُفاف وخفيف بمعنى، ورُبد: لمع، وعضب: قاطع.

أقـاموا لهـم خـيلًا تـزاورُ بالقنـا وخـيلًا جُنوحًـا أو تعـارضُ بالرَّكْـبِ
فما ذرَّ قَرْنُ الشمس حتى كأنَّهم بذاتِ اللَّظَى خُشْبٌ تُجَرُّ إلى خُشْبِ
كـأنَّ بـذي دَرْوَان والجـزعِ حَوْلَـهُ إلـى طَـرَفِ المِقْـرَاةِ راغيـةَ السَّـقْبِ

نعم، هذه الأبيات كَثُرَ فيها الغريب، لكنَّه –في نظري– أضفى عليها مهابة وفخامة وجَلالًا، أمَّا سببُ الغرابة فإنَّ أكثر من أربعة عشر قرنًا بيننا وبين هؤلاء الناس كفيلة بأن نَرَى هذا الكلام غريبًا، فهل نتوقع بعد هذه المدَّة الطويلة أن يكون هذا الكلام من السهولة بمكان؟! ثم لماذا لا نُفَتّش عن هذه الكلمات الغريبة في معجمات اللغة، وهو أمرٌ شائعٌ في كُلِّ اللغات؟

لا ينبغي لنا أن نأخذ الهذليين بألفاظ كانت تجري على ألسنتهم يومًا ما ثُمَّ قَلَّ استعمالها على مدى الأيام(١)؛ لأنَّ «الألفاظ صورة معنوية من الاجتماع، وإنَّ الزمن ليفعل في إحالة هذه الألفاظ عن مدلولاتها ما تفعل أطوار العمر في معاني النشأة فالشباب فالكهولة»(٢). وهذا الغريب أوتلك الخشونة التي نراها في نقائض الهذليين أو في الشعر الجاهلي بصفة عامة هي جماعُ خصائصه المميزة له عن سائر أطوار الشعر العربي(٣).

لنستمع أيضًا إلى إياس بن جُنْدب بن المعترض وهو يقول(٤):

ألا لَيْـتَ شـعري يـا لقـومٍ أجهـلٌ بـابن نجـدةَ أم غـرامُ؟

(١) انظر: شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، ص ٢٣٩.

(٢) تاريخ آداب العرب، للرافعي، مكتبة الإيمان بالمنصورة، ٢/ ٢٢١.

(٣) انظر: المرجع السابق، الجزء نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٨٣٦. قراعًا: جمع قَرْع، وهو الرجل الذي إذا همَّ بالشيء وأراده ضعف عنه وجبن، والصيف: الربيع، ورام: رأم، وهو البوّ، يثعطن: يرضخن ويدقون، والعراب: الثمر الذي يُتخذ منه السُبح، ليس بأسود، واحدها: عَرابة، وفُلْح: واحدتها فلحاء، وهي مشققة الشفاه.

تمنَّـــى أن يلاقينـــا قراعًـــا ... ويـــومُ لقائنـــا المُـــرُّ العَقـــامُ
فرجُّـــوا غيبنـــا حتـــى ثَرَوْنَـــا ... كحينِ يقيلُ فـي الصيف الحَمـامُ
تُغَنِّـــي نِسْـــوَةً كَنَفَـــيْ غُضَـــارٍ ... كأنَّـــــك بالنشـــــيد لهـــــنَّ رامُ
يُـــثَعِّطْن العَـــرَاب فهـــنَّ سُـــوْدٌ ... إذا جالســـــنه فُلْـــــحٌ قِـــــدامُ

هذا شعر فصيح جيّد، ومشكلته في الخشونة والغرابة، وتزول هذه المشكلة باستشارة قواميس اللغة، بعد ذلك سنفهم المعنى، ونستشعر الجمال. فالمشكلة إذًا في المُتَلقِّي، وهذه راجعٌ إلى البعد الزمني، والبعد المكاني، وضعف الآلة، أمَّا الهذليون «فكانوا يتكلّمون عن طبعٍ أصيل، وبكلمات يتداولونها في باديتهم؛ فجاءت غرابتهم عن أصالةٍ تحمل من معاني الحياة جمالًا كثيرًا، وشعرُهم من هذه الناحية قَيِّمٌ جدًّا، وإنْ حجبته الغرابة اللفظية»(١).

ولم تَغِبْ هذه الغرابة عن شعر الهذليين حتى مع دخول الإسلام واستقراره في نفوسهم وارتحالهم عن أماكنهم؛ إنَّه أثر البيئة وظلُّها القويّ الذي يَصْعُبُ مَحْوُه من نفوس هؤلاء القوم، وقد عرضنا نصوصًا من النقائض الهذلية الإسلامية، كنقائض أمية بن أبي عائذ وسهم بن أسامة وإياس بن سهم بن أسامة وأبي العيال وبدر بن عامر، ولم تخلُ جميعها من الغريب، ونذكِّر بقول بدر بن عامر في مدح أبي العيال(٢):

أَسَـدٌ تَفِـرُّ الأُسْـدُ مـن عُرَوَائِـهِ ... بعـــوارض الرُّجَّـــاز أو بعيـــونِ
ويَجُـــرُّ هُـــدَّابَ الفليـــلِ كأنَّـــهُ ... هُـدَّابُ خَمْلَـةِ قَرْطَـفٍ مَمْهـونِ

(١) شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، ص ٢٣٩.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٤٠٩، ٤١٠. عروائه: حسُّه ودنوّه، والعوارض: النواحي، والرُّجَّاز وعيون: موضعان، والهُدَّاب: الأطراف، والفليل: خُصَل الشعر، وكل ما له خُصَلٌ من القُطُف وغيرها فهو (قَرْطف)، وممهون: مستعمل، وزجل: صوت، والجرين: ما طَحَنْتَهُ.

ولصـــوته زَجَـــلٌ إذا آنَسْـــتَهُ جَـرَّ الرَّحَـى بجرينهـا المطحـونِ

وإذا عَـدَوْتَ ذَوِي الثِّقـاتِ فإنَّــه مِمَّـنْ تصـولُ بــه إلــيَّ يمينــي

وخلاصة القول أنَّ هذه الألفاظ كانت تؤدِّي معانيَ من حياة أهل تلك اللغة مبنية على مصطلحات ومواصفات مألوفة بينهم، وكانت أسماء وصفات لأماكن أو نباتات أو حيوانات أو حشرات، وكلُّ ذلك كان من مألوف اجتماعهم، ويحمل معاني حياتهم، وطبيعة سلوكهم؛ لكنَّه صار بالنسبة لنا منكرًا غريبًا لا نعرفه ولا نفهمه.

رابعًا- أوزان النقائض الهذلية:

قام البحث بعمل حَصْرٍ لأوزان نقائض الهذليين، وجاءت النتائج كالآتي:

- عشر نقائض استبدَّ بها بَحْرُ الطويل.
- عشر نقائض استبدَّ بها بحر الوافر.
- نقيضة واحدة على بحر الكامل.
- نقيضة واحدة على بحر المتقارب.
- نقيضة من قصيدتين، إحداهما على الوافر والأخرى على الطويل.
- نقيضة من ست قصائد ومقطوعات، تقسَّمَت أثلاثًا بين الوافر والطويل والبسيط.

وبناء على هذا يكون نصيبُ كلُّ بَحْرٍ من النقائض كالآتي:

بحر الوافر: ١٠,٨ نقيضة.

بحر الطويل: ١٠,٨ نقيضة.

بحر الكامل: نقيضة واحدة.

بحر المتقارب: نقيضة واحدة.

بحر البسيط: ٣. نقيضة.

ولا غرابة في كون البحر الطويل أكثر البحور حضورًا في النقائض الهذلية؛ فليس بين البحور ما يضارعه في نسبة شيوعه؛ فقد جاء ما يقرب من

ثلث الشعر العربي القديم على هذا الوزن[١]؛ لطول نفسه وأبَّهته وجلاله، فالشعراء يهرعون إليه لبسط المفاخر والمثالب؛ في مدحهم وهجائهم ورثائهم.

وإنما الغرابة في كون البحر الوافر يساوي البحر الطويل في نسبة الحضور، نعم هو ينتمي إلى بحور الطبقة الأولى، ومن الشعراء من يُفَضِّله على البسيط[٢]، لكن لا يَرْقَى لمنزلة الطويل، فماذا وراء كثرة حضوره في النقائض الهذلية؟ هذا يدعونا إلى البحث في طبيعة هذا البحر وصفاته، وتماشي هذه الصفات مع طبيعة الحياة الهذلية.

بحر الوافر مبنيٌّ في الدائرة من ستة أجزاء على هذه الصورة[٣]:

مفاعلَتُن مفاعلَتُنْ مفاعَلَتُنْ مفاعَلَتُنْ مفاعَلَتُن مفاعَلَتُن

والوافر على هذه الصورة فيه نَوْعُ ثِقل، والشعراء يحتالون على هذا الثقل بشيئين: الأول: يُسَكِّنون الخامس المتحرك، ويُسَمَّى هذا عَصْبًا[٤]، وهذا يجعل التفعيلة (مفاعلْتن)، وتشبه (مفاعيلن)، وكلَّما أكثر الشعراء من العصب اقترب البحر من الهزج، فيصير بحر الوافر هزِجًا راقصًا، سَهْلًا على اللسان، ورطبًا في الآذان. والثاني: لا يستخدمونه إلا مقطوفًا، والمقطوف ما سقط من آخره زنةُ سبب خفيف بعد سكون خامسه، كان أصله (مفاعَلَتُن) فسكن لامه فبقي

(١) انظر: موسيقى الشعر، للدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٥٢م، ص٥٧.

(٢) انظر: أوزان الشعر، لمصطفى حركات، الدار الثقافية، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ، ص ٨٥.

(٣) انظر: العيون الغامزة على خبايا الرامزة، للدماميني (ت ٨٢٧هـ)، تحقيق: الحسَّاني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، ط٢، ١٩٩٤م، ص ١٦٢.

(٤) كتاب الكافي في العروض والقوافي، للتبريزي (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: الحسَّاني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، ص ٥٤.

(مفاعلْتن)، فنُقِلَ إلى (مفاعِيْلُن)، وحذفت منه (لُن)، فبقي (مفاعي)، فنُقِل إلى فعولن[١].

ولهذا الانبتار الذي يحدث في كُلِّ شطرة خاصَّة غريبة هي «أنَّ عجزه سريع اللحاق بصدره، حتى إنَّ السامع لا يكاد يفرغ من سماع الصدر حتى يهجم عليه العجز»[٢].

الإسراع في النغمات وتلاحقها هو أهمُّ ما يميّز بحر الوافر، يُضاف إلى ذلك سمة الخطابيّة، قال عبد الله الطيّب: «ولهذا فإنَّك أكثر ما تجدُ الوافر في نظم الشعراء ذا أساليب تغلب عليها الخطابة، لا فَرْقَ في ذلك بين رقاق الوافرات وفَخْماتها، والخطابة في الوافر جَليٌّ فيها عنصر التكرار والمزاوجة والمطابقة، وحملها الصدر على العجز، والإضراب عن الشيء إلى سواه، وعرض جوانب مختلفة من المعنى الواحد يتبع بعضها بعضًا»[٣].

فالسرُّ إذًا وراء هذا الحضور الكثيف للبحر الوافر في النقائض الهذلية يكمن في السرعة والتتابع والخطابية، السرعة والتدافع تحكيان تمامًا السرعة والتدافع في حياة الهذليين؛ التدافع وراء الكلأ والعُشب، والانتقال من مكان إلى مكان، والتدافع في الحرب والقتال والغزو والنهب، وأكثر النقائض –كما مرَّ– كانت في ظلال هذه الأيّام والحروب؛ إنَّه إيقاعٌ سريعٌ جدًّا يشبه إيقاع الحياة السريعة المتدافعة المتلاحقة التي يعيشونها. أمَّا الخطابية فلأنَّ الشعر قديمًا كانت تُرَاعى فيه مسألة الإنشاد، فقد كانوا يُنشدون الشِّعْر في سِلْمهم وحربهم، وحلِّهم وترحالهم، كان ممزوجًا بحياتهم مَزْج المِلح بالماء. وينبغي أن نُرَاعي هذه السمات الشفهية الإلقائية عند تحليل القصائد القديمة؛ لأنَّ أدبنا القديم كان شفويًا

(١) كتاب الكافي في العروض والقوافي، ص ٥١.
(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب، للدكتور عبد الله الطيِّب، ط الكويت، ١/ ٤٠٦.
(٣) نفسه، ١/ ٤٠٧.

خطابيًا، يخاطبُ الأسماعُ أولًا، وموسيقاه الإنشادية هي أعظمُ وسائل أدائه[١]. ومقام النقائض مقامٌ خطابيّ، لا شكَّ في هذا؛ فالبادئ كأنَّه يخطب بشعره، يُعَيِّر خصمه، ويفخر عليه، والناقض يخطب أيضًا، ويهدم ما قاله الأوّل بحجَّة قوية، وبيانٍ واضحٍ.

ونشير إلى أنَّ النقائض المكونة من قصيدتين أو قطعتين جاءت كلُّها على وزن واحدٍ، ورويٍّ واحد، وحركة واحدة للرويّ، ماعدا نقيضتين اثنتين: الأولى تغيَّر فيها البحر، لكنَّ الرويّ لم يتغيّر، ولم تتغَيَّر حركته كذلك، وهي نقيضة البُريق بن عياض بن خويلد اللِّحْياني مع حذيفة بن أنس[٢]، قال البُرَيق:

لقد لاقيتُ يَوْمَ ذهبتُ أبني بحزمِ نُبَائعٍ يومًا أمارا

فأجابه حذيفة بن أنس:

ألا أبلغا جُلَّ السواري وجابرًا وأَبْلِغْ بني ذي السَّهْمِ عَنِّي ويَعْمرَا

والثانية: لم يتغيّر فيها البحر، أمَّا الرويّ فقد تغيّر حَرْفه ولم تتغيّر حركته، وهي نقيضة المعترض بن حَبْوَاء الظفري مع عَبْد مناف بن رَبْعٍ[٣]، قال المعترض:

قَتَلْنَا مَخْلَدًا وابني حُرَاقٍ وآخرَ جَحْوشًا فوق الفطيمِ

فأجابه عَبْدُ منافِ بن رَبْعٍ:

ألا أبلغْ بني ظَفَرٍ رسولًا ورَيْبُ الدَّهْرِ يحدثُ كُلَّ حينِ

(١) انظر: الخطاب الشعري عند حسَّان في همزية فتح مَكَّة (دراسة تحليلية)، للدكتور محمد شمس كامل عُقاب، حولية كلية اللغة العربية، بإيتاي البارود، ١٤٤١هـ – ٢٠٢٠م، العدد الثالث والثلاثون، الإصدار الأول – مارس – المجلد السادس.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٥٥٤، ٧٤١.

(٣) نفسه، ص ٦٧٨.

ومثلُ هذه التغييرات يسيرة، ولا تخلو منها النقائض حتى في العصر الأموي؛ عصر أَوْجها وازدهارها، فقد سمعنا الفرزدق يقول[١]:

إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا بيتًا دعائمهُ أعزُّ وأطولُ

فأجابه جرير، وغيَّر حركة الروي إلى الكسر[٢]:

لمنِ الديارُ كأنَّها لم تُحْلَلِ بين الكِناسِ وبين طَلْحِ الأَعْزَلِ

أما النقائض ذوات القصائد والمقطوعات المتعدِّدة، فالجاهلية منها، وهي نقيضة صخر الغيّ وأبي المُثَلَّم، اتسمت بالتنوع، لكنها التزمت بحرًا واحدًا ورويًّا واحدًا وحركة واحدة بين كُلِّ مقطوعتين أو قصيدتين. والإسلاميتان التزمتا بحرًا واحدًا ورويًا واحدًا وحركة واحدة في كلِّ المقطوعات والقصائد، ولعلَّ السبب أيضًا راجعٌ إلى طبيعة الحياة؛ فالحياة الجاهلية لا تعرف الاستقرار ولا الثبات، أما الحياة الإسلامية فهي حياة الاستقرار والهدوء والسكينة.

وبقي أمرٌ واحد في حديثنا عن أوزان النقائض الهذلية، وهو أننا وَجَدْنَا إقواء في أكثر من موضع في هذه النقائض، والإقواء من عيوب القافية، ومعناه: رَفْعُ بيتٍ وجرُّ آخر[٣]. ومن هذه المواضع قول قيس بن العيزارة[٤]:

أقائدَ هذا الجيش لَسْنَا بِطُرْقةٍ ولكن علينا جِلْدُ أخنس قَرْثَعِ
مقيمُ القوافي لا أعاتبُ مُبْغِضي على الهُون جشَّاعٌ بهنَّ مُجَشَّعُ

---

(١) نقائض جرير والفرزدق، لأبي عبيدة معمر بن المُثَنَّى (ت ٢١٠هـ)، ط دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، ١/ ١٣٤.

(٢) نفسه، ١/ ١٥٥. الكِنَاس: موضع، والأعزل: واد، والطلح: شجر من العضاه.

(٣) انظر: كتاب القوافي للأخفش (ت ٢١١هـ)، تحقيق: أحمد راتب النفَّاخ، دار الأمانة، ط١، ١٩٧٤م، ص ٤٦.

(٤) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٦٠٤. أخنس: أسد، وقرثع: أسد.

وقول الأبحّ بن مُرَّة أخي أبي خراش[١]:

لعمــركَ ســاريَ بــن أبــي زُنَــيمٍ لأنـــتَ بعَرْعَـــرَ الثـــأرُ المنـــيمُ

عليـك بنــي معاويــة بــن صَـخْرٍ فأنـــت بعَرْعَـــرٍ وهُـــمُ بضـــيمِ

والسبب في هذا راجعٌ أيضًا إلى بيئة البادية الخشنة، التي تصبُّ اهتمامها على إصابة المعنى وبلوغه، أمَّا بيئة الحضر فمقاييسها للتذوق لا تحرص على هذا قدر حرصها على النواحي الفنية[٢]، ولهذا لمّا دخل النابغة يثرب وأنشد شعرًا لاحظ اليثربيون إقواءه فيه، ولم يفطن النابغة إلى هذا حتى غنَّت الجارية بالشعر أمامه، ومدَّت صوتها بالقوافي، فأحسَّ النابغة بالنشاز وغير حركة الروي، وقد عقَّب المرزباني على هذا الخبر بقوله: «وأهلُ القرى ألطف نظرًا من أهل البدو»[٣]. أي: أنَّ في الأعراب جفوة وغلظةَ حسٍّ تحول بينهم وبين إدراك هذا الاختلاف، أمَّا أهل الحواضر فهم ألطف نظرًا، وقد وهبتهم حياتهم الراقية آذانًا موسيقية تستطيع أن تدرك مثل هذا النشاز.

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، ص ٦٦٧. عرعر وضيم: موضعان.

(٢) انظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، للدكتور السعيد الورقي، دار المعرفة الجامعية، ٢٠١٦م، ص ٣٣.

(٣) الموشح، ط دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م، ص ٥١.

الخاتمــة

رصد البحث في الشعر الهذلي، الذي أطبق الناس على فصاحته أو كادوا، أربعًا وعشرين نقيضة، ودَرَسها دراسة وافية، من حيث بنيتُها المعنوية والفنية، وانتهى من هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج، على رأسها:

١- أكثر هذه النقائض كان في العصر الجاهلي، بمجموع اثنتين وعشرين نقيضة، أمَّا العصر الإسلامي فكان حظُّه نقيضتين اثنتين فقط، ومن الطبعيّ أن يهدأ صَخَبُ النقائض تحت راية الإسلام، الذي يدعو إلى الوحدة، ودفن الأحقاد والأضغان، والتحلّي بمكارم الأخلاق ونَبْذِ سيِّئها. وهذه النقائض في عَصْريها؛ الجاهلي بصورة أكبر، وصدر الإسلام بصورة أقلّ، تحكي فنًّا مكتمل الأركان والقواعد.

٢- وُجِدَتْ مجموعة من النقائض محورُها المرأة، وعَرَضَتْ هذه النقائض نظرة المجتمع للمرأة، وأثرها فيه، وشيئًا من سلوكها وطبائعها. وقد كشفت هذه النقائض ما وصل إليه المجتمع الهذلي الجاهلي من شيوعٍ للفاحشة ومجاهرة بها، وكيف كانت المرأة تُهان ويُجْنَى عليها، ولاسيّما في ظلِّ الأيَّام والحروب، وهل هناك أبشع من أنها كانت تُؤسر عُرْيانة؟!

٣- أكثر هذه النقائض دار حول الأيَّام والحروب، ولم تكن هذه الحروب طويلة ولا بأعداد كبيرة، وإنما كانت غارات خاطفة وبأعداد محدودة؛ عُدْوَانًا على الغير أو دفاعًا عن النفس، لكنها -مع ذلك- كانت قاسيةً وحشيةً بَشِعةً، لا ترْحَمُ طفلًا، ولا تَرِقُّ له، ولا تسترُ امرأة، ولا تبالي بعجزها ولا بضعفها، ولا تُوَقِّرُ شيخًا كبيرًا، بل تسوقه يَرْسُف في قيوده ذليلًا مهينًا.

٤- وجدنا مجموعة من النقائض محورُها غير الحرب والنساء؛ كانت للتهاجي من أجل التهاجي، والتوعّد والعتاب؛ فقد كان منهم أناسٌ يتقحَّمون باب الهجاء من دون سبب، فيسبّون ويُعَيِّرون ويتوعَّدون ويأخذون غيرهم بالظِّنَّة، فيجيبهم مَنْ نِيْلَ منهم أو تُوُعِّدوا، بسببٍ مناظرٍ وتوعّدٍ وتعيير موازيين، أو يحاولون تبرئة أنفسهم من التُّهم التي أُلْقِيَتْ عليهم.

٥- كانت هذه النقائض تقوم على ذكر مفاخر الذات والعشيرة، وتعداد مظاهر القوّة، والإطناب في وَصْف المقاتلين وسلاحهم وخيولهم، ثُمَّ التعرّض لمثالب المهجوّ وإظهار عيوبه. وكان الشاعر يحرصُ على إفساد ما يُقَرِّره الأوّل من معانٍ، ويسلك لأجل ذلك طرقًا متعدِّدة؛ كالقلب والمقابلة والتوجيه والتكذيب، ويعكس هذا معرفة هؤلاء الشعراء بالجدل وطرقه، لكنَّه جَدَلٌ لم يَبْلُغْ من القوة والمتانة والدقة مابلغه في عهد الأمويين.

٦- شكَّلَ التشبيه أكثر الصور الفنيّة في نقائض الهذليين، وعاونته في ذلك الاستعارة، واستمدَّ الشعراء صورهم من الحياة الواقع؛ ولذا اتسمت هذه الصور بالصدق والواقعية والجمال، وعكست طبيعة هؤلاء القوم، وتكوينهم النفسيّ، ونظرتهم إلى البيئة من حولهم؛ أرضها وسمائها، وحيوانها وجمادها، وأنهارها وأشجارها ونباتها.

٧- كَثُرت المقطوعات في النقائض الهذلية، وقد أرجعنا ذلك إلى الإيقاع السريع الذي تتميّز به الحياة الهذلية، وسرعة الحياة تستلزم السرعة الفنيّة، والسرعة الفنية لا تميل كثيرًا إلى التطويل، مع احتمال أن تكون هذه المقطوعات قيلت طويلة وسقط منها بعضُها بفعل عوادي الزمن.

٨- وقد رأينا غريبًا كثيرًا في النقائض الهذلية، وليس هذا ممَّا يعيبها، فيكفي أن نعود إلى معجمات اللغة فتزول المشكلة ونفهم المعنى ونستشعر الجمال. وهذه الغرابة سببُها البعدان الزمني والمكاني، وضعفُ الآلة، أمَّا الهذليون فكانوا يتكلّمون عن طبعٍ أصيلٍ، وبكلمات يتداولونها في باديتهم، فجاءت غرابتهم عن أصالةٍ تحملُ من معاني حياتهم جمالًا كثيرًا.

٩- وكان أكثر هذه النقائض على وزن البحر الطويل، ولا غرابة في هذا؛ فما يقرب من ثلث الشعر العربي القديم جاء على هذا الوزن، أمَّا الغريب حقًّا فهو أن يساوي البحرُ الوافرُ البحرَ الطويلَ في نسبة الحضور، وقد أرجعنا هذا الحضور الكثيف للبحر الوافر إلى صفاته التي تتمثَّل في الإسراع في النغمات وتلاحقها، والخطابية التي يتمتع بها، وقلنا: إنَّ هذه الأوصاف تحكي طبيعة الحياة الهذلية السريعة المتدفِّقة المتلاحقة.

المصادر والمراجع

١- أُسْد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق: علي محمد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
٢- أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، قرأه وعلَّق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدّة، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٣- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات، ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
٤- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، دار الكتب المصرية، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.
٥- أوزان الشعر، لمصطفى حركات، الدار الثقافية، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
٦- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، لعبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠١٧م.
٧- البلاغة العربية فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)، للدكتور فضل حسن عبّاس، دار الفرقان، ط١١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
٨- تاريخ آداب العرب، لمصطفى صادق الرافعي، مكتبة الإيمان بالمنصورة، د. ت.
٩- تاريخ النقائض في الشعر العربي، لأحمد الشايب، دار النهضة المصرية، ط٢، ١٩٥٤م.
١٠-تاريخ النقد الأدبي عند العرب، للدكتور السعيد الورقي، دار المعرفة الجامعية، ٢٠١٦م.
١١-توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس، لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٢–التيار المشرقي في الأدب الأندلسي، للدكتور حسن عبَّاس، مطبعة الشاعر، طنطا، د. ت.
١٣–جواهر البلاغة، للهاشمي، المكتبة العصرية، ط١، ١٩٩٩م.
١٤–الخطاب الشعري عند حسَّان في همزية فتح مَكَّة (دراسة تحليلية)، للدكتور محمد شمس كامل عُقاب، حولية كلية اللغة العربية، بإيتاي البارود، ١٤٤١هـ – ٢٠٢٠م، العدد الثالث والثلاثون، الإصدار الأول – مارس – المجلد السادس.
١٥–ديوان الهذليين، تحقيق: أحمد الزين ومحمود أبو الوفا، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م، (طبعة مصوّرة عن طبعة دار الكتب المصرية).
١٦–زهر الآداب، للحُصْري (ت ٤٥٣هـ)، فصَّله وضبطه وشرحه: الدكتور زكي مبارك، وحققه وزاد في تفصيله وضَبْطه وشرحه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٤.
١٧–شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، ط٨، ٢٠١٩م.
١٨–شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، للدكتور أحمد كمال زكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م.
١٩–الشعر والشعراء، لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، ط٢، ١٩٥٨م.
٢٠–العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٧٣م.
٢١–العصر الجاهلي، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، ط ٢٢.
٢٢–العمدة في محاسن الشعر ونقده، لابن رشيق (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
٢٣–العيون الغامزة على خبايا الرامزة، للدماميني (ت ٨٢٧هـ)، تحقيق: الحسَّاني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، ط٢، ١٩٩٤م.

٢٤-فحولة الشعراء، للأصمعي (ت ٢١٦هـ)، تحقيق المستشرق: ش تورّي، قدَّم لها: الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط٢، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
٢٥-فنُّ التشبيه، للدكتور علي الجندي، مكتبة نهضة مصر، ط١، ١٩٥٢م.
٢٦-فن الخطابة، للدكتور أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، ط٢، ١٩٩٨م.
٢٧-الفهرست، للنديم (ت ٣٨٥هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ت.
٢٨-كتاب القوافي للأخفش (ت ٢١١هـ)، تحقيق: أحمد راتب النفَّاخ، دار الأمانة، ط١، ١٩٧٤م.
٢٩-كتاب الكافي في العروض والقوافي، للتِبْرِيزي (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: الحسَّاني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٣٠-كتاب شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد السكّري (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: عبد الستّار فرَّاج، ومراجعة: محمود محمد شاكر، دار العروبة، القاهرة، د. ت.
٣١-لسان العرب، لابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت.
٣٢-مجمع الأمثال، للميداني (ت ٥١٨هـ)، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
٣٣-المرشد إلى فهم أشعار العرب، للدكتور عبد الله الطيِّب، ط٣، الكويت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
٣٤-مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، للدكتور ناصر الدين الأسد، دار الجيل، ط٧، ١٩٨٨م، طبعة مصوّرة عن طبعة دار المعارف.
٣٥-معجم البُلْدان، لياقوت الحَمَوي (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
٣٦-معجم تراجم الشعراء الكبير، للدكتور يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٣٧-معجم ما استعجم، للبكري الأندلسي (ت ٤٨٧هـ)، تحقيق: مصطفى السَّقَّا، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ.

٣٨–المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي، جامعة بغداد، ط٢، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.
٣٩–مناقب الشافعي للبيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م.
٤٠–موسيقى الشعر، للدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٥٢م.
٤١–الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، للمَرْزُباني (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق: محمد حُسَين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.
٤٢–النّص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي)، للدكتور محمّد عَزَّام، منشورات اتحاد كُتَّاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م.
٤٣–النقائض الجاهلية (النماذج الأقدم)، للدكتورة فاطمة حسن عبد الفتاح، حوليات آداب عين شمس، المجلد (٤٤) (أكتوبر – ديسمبر ٢٠١٦).
٤٤–نقائض جرير والفرزدق، لأبي عبيدة معمر بن المُثَنَّى (ت ٢١٠هـ)، ط دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
٤٥–نقائض صخر الغيّ وأبي المُثَلَّم (دراسة تحليلية) للدكتورة ليلى بنت محمد بن عبد الرحمن الدخيل، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، الإمارات، العدد (٤٧)، ٢٠١٤م.
٤٦–الهجاء والهَجَّاءون في الجاهلية، للدكتور محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، ١٩٤٧م.
٤٧–هُذَيل في جاهليتها وإسلامها، للدكتور عبد الجوَّاد الطيّب، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٢م.

مُلْحقٌ، وفيه حصرٌ للنقائض في شعر الهذليين

م	النقيضة	زمنها	سَبَبُها	الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	الرويّ
١	هجا أبو ذؤيب الهُذَلي ابن أخته خالدًا فأجابه خالد بن زهير	الجاهلية	أنَّ خالدًا أخذ أمَّ عمرو من أبي ذؤيب	ص ٢٠٧	١٧ ١٧	الطويل الطويل	الراء المضمومة الراء المضمومة
٢	نقيضة خالد بن زهير ومعقل بن خويلد	الجاهلية	هجاء بسبب النساء	ص ٢٢٠	٣ ٥	الطويل الطويل	التاء المكسورة التاء المكسورة
٣	نقيضة عامر بن العجلان وأبي المُثَلَّم	الجاهلية	هجاءٌ له عُلْقَةٌ بالنساء	ص ٣٠٣	٦ ١٢	المتقارب المتقارب	الضاد المكسورة الضاد المكسورة
٤	نقيضة أم عمرو امرأة خِذام الخزاعي مع معقل بن خويلد	الجاهلية	الحرب وأسر النساء	ص ٣٩٦	٣ ٤	الطويل الطويل	الراء المضمومة الراء المضمومة
٥	قال مالك بن خالد يَرُدُّ على مالك بن عوف في يَوْمِ البَوْبَاة	الجاهلية	الحرب	ص ٤٥٣	٦ ١	الطويل الطويل	الراء المكسورة الراء المكسورة
٦	قال مالك بن خالد فأجابه رجلٌ من خزاعة	الجاهلية	الحرب	ص ٤٦٥	٧ ١	الطويل الطويل	الباء المكسورة الباء المكسورة
٧	رثى البُرَيقَ بن عياض بن خويلد اللِّحياني أخاه فأجابه حذيفة بن أنس	الجاهلية	الحرب – رثاء الأخ	ص ٧٤١ ص ٥٥٤	١٦ ١٧	الوافر الطويل	الراء المفتوحة الراء المفتوحة

٨	نقيضة عمرو ذي الكلب مع ابن تُرْنَى الهُذَلي	الجاهلية	الحرب	ص ٥٦٥ ص ٥٧٣	٣٠ ٩	الوافر الوافر	اللام المكسورة اللام المكسورة
٩	قال قيس بن العَيْزَارة فأجابه تأبَّط شرًا فأجابه قيس بن العيزارة	الجاهلية	الحرب	ص ٥٨٩ ص ٥٩٥ ص ٥٩٦	٢٣ ٤ ٢	الطويل الطويل الطويل	العين المضمومة العين المضمومة العين المضمومة
١٠	قال قيس بن العيزارة في غزوة فَهْم فأجابه أبو عامر بن أبي الأخنس الفَهْمي	الجاهلية	الحرب	ص ٦٠٣ ص ٦٠٤	٦ ٣	الطويل الطويل	العين المكسورة العين المكسورة
١١	قال الأَبَحُّ بن مُرَّة أخو أبي خراش فأجابه سارية بن زُنَيْم	الجاهلية	الحرب	ص ٦٦٧ ص ٦٦٨	٥ ٢	الوافر الوافر	الميم المضمومة الميم المفتوحة
١٢	نقيضة المعترض بن حَبْوَاء الظفري مع عَبْد منافِ بن رَبْعٍ	الجاهلية	الحرب	ص ٦٧٨ ص ٦٨٠	٧ ٨	الوافر الوافر	الميم المكسورة النون المكسورة
١٣	قال أبو بُثَيْنة القُرَمي الصاهلي فأجابه أُهْبان بن لُعْط الذّيْلي فأجابه أبو بثينة	الجاهلية	الحرب	ص ٧٢٥ ص ٧٢٦ ص ٧٢٨	٥ ٦ ٥	الوافر الوافر الوافر	السين المكسورة الراء المضمومة الراء المضمومة
١٤	قال أبو بُثَينة القُرَمي يهجو سارية فأجابه سارية بن زُنَيم	الجاهلية	الهجاء	ص ٧٣١ ص ٧٣٣	٧ ٤	الوافر الوافر	اللام المكسورة اللام المكسورة

١٥	قال عبَّاس بن مِرْدَاس السُّلَمِيّ فأجابه رَجُلٌ من لِحْيان	الجاهلية	هجاء لأخواله وعتاب	ص ٧٨٢ ص ٧٨٣	٣ ٤	الطويل الطويل	الراء المفتوحة الراء المفتوحة
١٦	قال عمرو بن قيس المخزومي فأجابه ساعدة بن عمرو من بني قُرَيم	الجاهلية	قتل ناقة عمرو (هجاء)	ص ٨٠١ ص ٨٠١	٣ ٢	الوافر الوافر	الراء المكسورة الراء المكسورة
١٧	قال عمرو بن هُمَيل اللِّحْياني في يَوْمِ غزال فأجابه سُوَيد بن عامر الخُزَاعي	الجاهلية	الحرب	ص ٨١٥ ص ٨١٧	٨ ٤	الطويل الطويل	اللام المكسورة اللام المكسورة
١٨	قال عمرو بن جُنادة الخُزَاعي يهجو عمرو بن هُمَيل فأجابه عمرو بن هُمَيل اللِّحياني	الجاهلية	الحرب	ص ٨١٩ ص ٨٢٠	٤ ١٧	الوافر الوافر	التاء المضمومة التاء المضمومة
١٩	قال ابن نَجْدَة الفَهْمِيّ فأجابه إياس بن جُنْدَب بن المعترض	الجاهلية	الحرب	ص ٨٣٥ ص ٨٣٦	٢ ٥	الوافر الوافر	الميم المضمومة الميم المضمومة
٢٠	قال تأبَّطَ شرًّا فأجابه شاعرٌ من بني قُرَيم	الجاهلية	قتل عمرو بن جابر أخي تأبَّط شرًّا	ص ٨٤٧ ص ٨٤٨	٣ ٥	الوافر الوافر	الباء المكسورة الباء المكسورة
٢١	قال مَعْقِل بنُ خُوَيلد فأجابه شاعرٌ من بني قُرَيم	الجاهلية	شماتة مَعْقل في هزيمة بني ذؤيبة وأسر سيِّدهم	ص ٣٩٤ ص ٨٧٩	٥ ٥	الوافر الوافر	الميم المفتوحة الميم المفتوحة
٢٢	قال صخر الغي لمَّا علم أنَّ أبا المُثَلَّم توعَّده فأجابه أبو المُثَلَّم فأجابه صخر الغيّ فأجابه أبو المُثَلَّم	الجاهلية	قُتْلُ صَخْرٍ جارَ أبي المُثَلَّم (هجاء)	ص ٦٢٢ ص ٢٦٣ ص	٧ ١٠ ٤ ١١ ٧	الوافر الوافر الطويل الطويل البسيط	الثاء المضمومة الثاء المضمومة الميم

	فأجابه صخر الغيّ فأجابه أو المُثَلَّم			٢٦٦ ص ٢٦٧ ص ٢٦٩ ص ٢٧٢	٢٢	البسيط	المكسورة الميم المكسورة اللام المضمومة اللام المضمومة
٢٣	قال أسامة بن الحارث يُشَبّب بامرأة من قومه فردَّ عليه ابن أخته أمية بن أبي عائذ فردَّ عليه إياس بن سهم بن أسامة فأجابه أميّة بن أبي عائذ	إسلامية	التشبيب بليلى	ص ٥٢٢ ص ٥٢٤ ص ٥٢٦ ص ٥٣٠	١٧ ١١ ٤١ ٢٣	الطويل الطويل الطويل الطويل	اللام المكسورة اللام المكسورة اللام المكسورة اللام المكسورة
٢٤	قال بَدْرُ بن عامر فأجابه أبو العيال فأجابه بدر بن عامر فأجابه أبو العيال فأجابه بدر بن عامر فأجابه أبو العيال فأجابه بدر بن عامر فأجابه أبو العيال	إسلامية	اتهام أبي العيال بدرًا أن يكون أعان على قتل ابن أخيه (عتاب)	ص ٤٠٧ ص ٤١٠ ص ٤١٣ ص ٤١٤ ص ٤١٧ ص ٤١٨ ص ٤١٩ ص ٤٢٢	١٥ ٨ ٥ ٦ ٥ ٥ ٧ ٧	الكامل الكامل الكامل الكامل الكامل الكامل الكامل الكامل	النون المكسورة النون المكسورة النون المكسورة النون المكسورة النون المكسورة النون المكسورة النون المكسورة

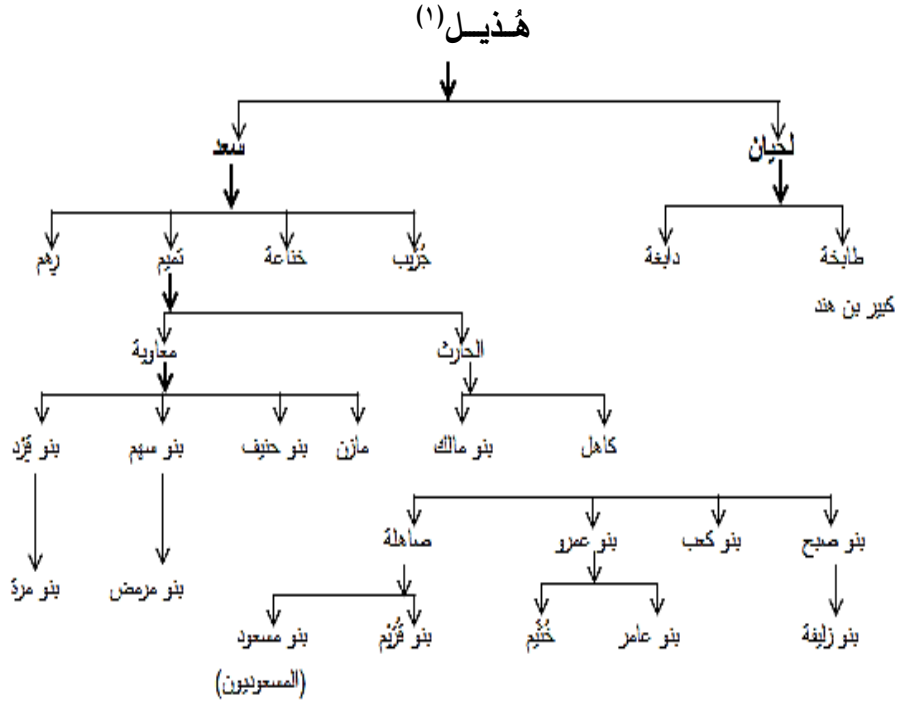

(١) هذيل في جاهليتها وإسلامها، للدكتور عبد الجوّاد الطيّب، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٢م، ص ٤٨.